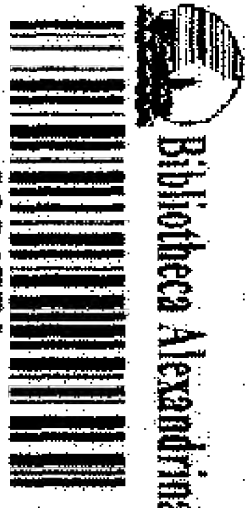
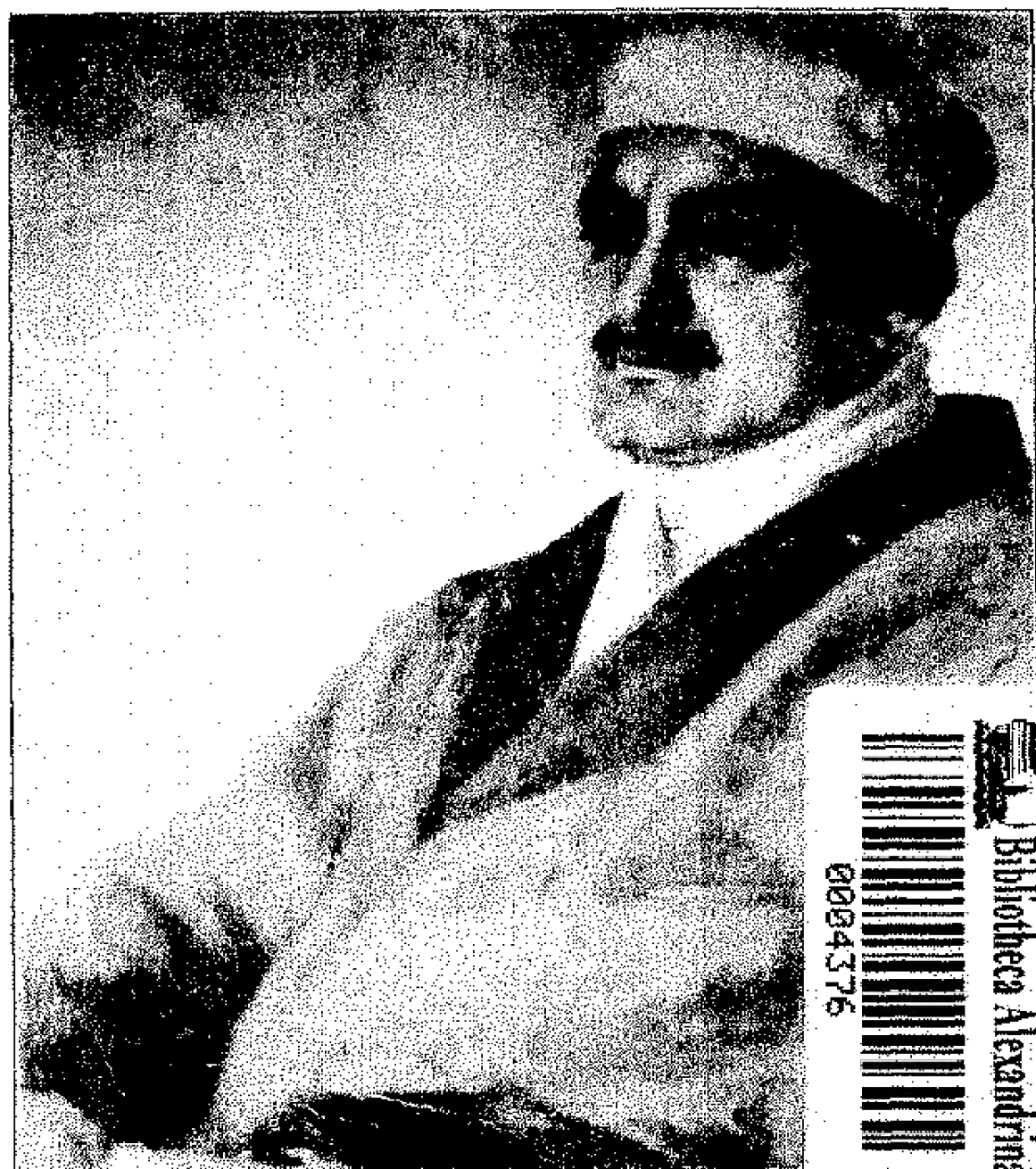


دكتورة نغمات أحمد فؤاد

# الجمال والحُرِّيَّةُ وَالشَّخْصِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ في أفق العقائد



دار المعارف







الحرية والحرية والشخصية الإنسانية

في العهد العثماني







دكتورة نemat أحمد فؤاد

الجمال والحريّة والشخصيّة الإنسانيّة  
في الأدب العربيّ العُمّال



دار المعارف

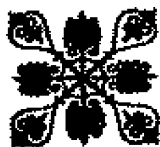


الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ م ٠ ع .



البَابُ الْأَوَّلُ

الْحَجَّالُ وَالْحَرِيَّةُ

















## العقاد

وكأنه مندور للمعبد . . . فقد وهب نفسه للكتابة ووهبت نفسها له . .  
هي صاحبه والولد . . . لا يكاد يخلو إلى نفسه أو إلى الناس إلا وهو على  
موعد معها يعود إليها فيه؛ على أنه في خطوة الظاهر، لا يخلو حسه وشعوره منها.  
فهو مع الناس تعيش معه فكرة في عقله ، أو صورة في عينه ، أو مسئولية  
في ضميره ، أو خاطراً في خياله ، أو خلجة في شعوره . . لا يذكره الناس  
وما أكثر ما يذكرونه - إلا مقترناً على لسانهم بكتاب جديد ، أو رأى جديد  
أو فتح جديد في عالم الكتابة . . عالمه . . يراه الناس وحده ، ويرى نفسه  
في جمع لا تمل صحبته ولا تدم رفقته ولا ترث صداقته . . صداقة صافية  
صفاء الخير ، سامية سمو الأدب ، صداقة أدباء يعيشون معه في بيته . .  
ويعيش معهم في نتائجهم. يطلون عليه أينما يخطو من زجاج المكتبات  
العديدة المنتشرة في داره حتى لتكاد تحجب جذرائها وتخفي معالم أثاثها.  
ففي كل ركن ، في كل زاوية ، في كل ردهة ، في كل حجرة أكدياس مركومة  
من الكتب بعضها سمح الوقت بتنسيقها والبعض ينتظر دوره في القراءة . .  
ومكانه على الرفوف الخاصة . . يراه الناس حياة عريضة خصبة وأراه  
حيوات كثيرة. ويعيش المرء أيامه ويعيش هو أجمل أيام العباقرة المحيطين به



في صمت وزهرة حياتهم . . وتشير وحدته من التفاسير ألواناً . . إنها ظاهرة  
عجيبة في دنيا التطاحن والصراع والزحام والتدافع والجلبة والطين واللغظ . .  
هذا الرجل المتوحد المتشامخ كيف يعيش ؟ . . ويذهبون في الجواب أشتاتاً . .  
يراه قوم هادياً كالشعاع . . عالياً كالمئار . . وارفاً كالظل . . زاهراً كالنهر . .  
عميقاً كالبحر . . حالياً كالروض . . رجباً كالأفق . . خصيباً كالوادي . .  
مرتفعاً كالأسد . . مصعداً كالنسر . . مهيباً كالعلم . . عنيداً كالجبروت . .  
لا يرجو ولا يخشى ، إذا تكلم أسمع ، وإن حاجى أفنع ، وإن عادى  
أفحم ، كثير بنفسه ، سلاحه لا يفل ، وصبره لا يمل ، وجده لا يكل ،  
وطاقته لا تنضب ، كأن وراءها ممدداً يرفدها من سر المخلود أو من روح الله .  
 ويفرض عليه آخرون برودة الوحدة وكآبة الوحشة وجذب القلب وفراغ البيت  
حوله من إنسان يعيش له ويرتجيه . إنسان يخرج من جوه بين الحين والحين .  
لا بل إن المرء محتاج إلى التفاهة أحياناً تجدد شوقه إلى الجد فيعود إليه  
أنشط وعليه أقدر ، كما يحتاج محرك السيارة إلى الماء يبرده بعد سير طويل .  
ويؤيدون رأيهم بالشيوخ من القادرين يتخذون جليلة تقوم على مطالبهم في مثل  
مسئولية الزوجة أو قريباً منها . أليس هذا دليل إحساس بالفراغ يحتالون  
على ملته ؟ . . وهب هؤلاء يستغنون بهذا الحل عن بلادة في التفكير أو  
بلادة في الإحساس . . عن كثافة لا ينفذون معها إلى القيم العليا في الزواج  
من سكن وأمان وراحة وتعاطف ومودة ورحمة ، ولكن الكاتب العبقرى  
وهو يدرك هذه المعاني كيف احتمل الحرمان ؟ ولا عبرة عند هؤلاء بهجوم  
الأولاد ومشاكلهم ، فقد يدفع الملائكة الصغار الثمن في لحظة ، يدفعونه



ابتسامة منورة أو كلمة مسكرة ، أو لغواً عذباً أو لغواً منعشاً ، أو دعاية هائلة ، تغسل نفس المكدر فتسترد في ظلهم الرطيب صفاءها و سلامها .

ويعودون من جولتهم وعلى لسانهم . . هذا السؤال لا يزال : كيف يعيش هذا الكاتب ؟ أيامه كلها قلم وكتاب حتى يجالسه وأسماره مع أدباء أى كتب حية . . حتى ضحكاته على نواذر أدبية . . هل أقفرت الحياة إلا من هذا ؟ إن الأدب جميل معجب ممتع شئ يستطيع أن يملأ القلب والنفس والحس جميعاً . . إنه موسيقى ذات أفكار ولكن على أن يكون هواية . . إن الفن ابن الموهبة والهواية ولكن إذا انقلب حرفة فقد الطلاوة والبهاء .

على أن الامتياز ١٠٠٪ كما يقول الرياضيون مخيف . . إنه في هذه الحالة يضمر القلب ويغدو العقل مسيطراً على نفسه وتغدو الحياة بدورها جافة صعبة . . هل يمكن للجسم أن يكون رأساً فقط ، لا بد من أعضاء صغرى تؤكد إنسانية الحي . . تؤكد وجوده . . لا بد من رجلين تسعيان . . ويدين تصفقان ولسان يتكلم وثرغر يضحك وحسب العقل أن يهيمن . . أن يسيطر . . حتى في هذا لا بد له من التجاوز لحظات أو حتى ساعات لتلوين الحياة . مرة أخرى يعودون إلى الكاتب العملاق والسؤال على لسانهم لا يزال :

كيف يعيش في هذه السن العالية ؟ أين الراحة التي يرتاح إليها في شيخوخة العمر ؟ والحقيقة أنى ضعيفة أمام هذا السؤال . . إلي من يحبون الحياة حباً جماً وأرى في كل مرحلة من مراحلها جمالاً خاصاً لا يفوقه جمال الصبا وربيعة . . يخيل إلي أن الرجل أو المرأة أعنى الزوج والزوجة في الكبر ، يحب كل منهما الآخر أكثر من حبه لأولاده . . إنهما عندئذ عالم خاص . .



عالم من الأسرار . . من الذكريات . . من التجارب . . فسلم الحياة الطويلة لكل درجة فيه عندهما قصة . . وما أحلى العمر عند القمة . إن الشيخين لا غنى لأحدهما عن الآخر . . العلاقة بينهما معنى خالص . . معنى عميق لا دخل للجنس أو الشهوة فيه . . إنهما يجلسان على حافة نبع غير منظور من الذكريات المزدوجة . . من الأحلام المحققة والتي ظلت أمانى . . يعيش الفرد عمراً واحداً ويعيش كل منهما عمريين .

مسكين الكاتب العملاق في توحده . . نخلة سامقة وسط الحجر . . ارتكازه على شخصه فقط حين يركز كل واصل على ظروف محيطه . . ووضعه وضع نادر في الدنيا . . لقد زادت الفردية عنده على حدها . . فهو لا يهتئ ولا يعزى أقصد بشخصه ، ولا عبرة بالرسائل والبرقيات تنوب عنه . . فهو ليس قطب مجالس ، ومن ثم ترى حديثه كعود القصب مستقيماً صلباً وإن لم تحجب صلابته ما فيه من سكر، وكتابته كحديثه صلبة هي الأخرى دقيقة . . خير من تمثل عنده دقة اللفظ العربي ومطابقته للفكرة . . الكلمة عنده ( قفاز ) محبوب ولو أنه أمد له في الإنساع نصف نمرة لأراح بعض الناس، ولكنه يأبى ويصر لأن المسألة تتصل عنده بطاقة القدرة . ولهذا لا يتذوقه إلا متخصص . وقارله إما أن يفهمه كله أو يتركه كله ، والكاتب في الحالين كأن صومعته قد كتب عليها بيت المتنبي إن جاز أن يقبل صاحبها في شموخه البالغ . . الاستعارة من أحد ولو كان عبقرى الشعر :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسر الخلق جراها ويختصم ولكن لماذا يلوم الناس الكاتب ، لماذا لا يلومون ، أنفسهم ؟ هل من



الضرورى أن يكون الكاتب هو المخطئ ؟ ولماذا لا يكون القارئ هو المختلف ولا أقول المختلف ؟ لماذا لا يصعدون إلى الكاتب . . ويحشمون أنفسهم جهد الصعود بدلاً من أن يقولوا له . . انزل علينا .

ولكنها كلمة لا يجرون على كل حال ، مع هذا الكاتب أن ينطقوها فإن قالوها بمعنى أو بآخر فإنما يكون ذلك بعيداً في الفضاء على طريقة دون كيشوت . والكاتب العملاق إذا تصدر للسؤال والجواب ألفيته موسوعة جامعة تتطوح الأسئلة ولا تعيبه ، وتستعصى ولو في نظر قائلها ولا تعدم عنده الجواب ! كيف اجتمعت له حقائق العلوم مع لطائف الأدب ولا سيما في عصر التخصص الذى غذا الامتياز في مادة واحدة كسب يزدهى صاحبه ويعليه ؟ كيف نبأ له هذا كله ؟ قد يكون هذا هو السؤال الوحيد الذى يزهد في الإجابة عنه .

على أن وضاعة النبوغ فيه ، ولألاء العبقرية ، وعبقرية العصامية لا تسكت تافهين يتصايحون حوله بالغل والحفيظة ، ومن عجب أمرهم أو أمر بعضهم على الأقل أنهم يقولون مالا يعتقدون إن هو إلا ابتغاء للشهرة أو رثاء للخصوم ، فإن حدث أن رقى صياحهم إليه كما يتصاعد الدخان إلى السماء لم يسكتهم واحداً واحداً بل يدعهم يطنون كالذباب ويتهافتون مثله حتى إذا تكاثر جمعهم وألهام التكاثر هشهم بمذبة واحدة فيتفرقون بكلمة منه جامعة أو لظمة منه رادعة يدخلون بعدها جحورهم كالنمل . . ومن الطريف قوله فيهم إنهم ( واغش بشرى ) يعجزه الصعود ويحنقه الهبوط . .

ميزته وعيبه الممحولة . . كل إنسان فيه جانب أثوى وجانب ذكرى ولكن



العقاد جانب الذكورة فيه كان طاعياً . . . والفنان يخدمه صفة الأنوثة . .  
 فالفنان رجلاً أو امرأة ، أم في احتضان البذرة أى الفكرة وتربيتها . . ثم  
 الخضوع للوحى أو التلقى الذى يقابل في الطبيعة ، الحمل  
 التأنيث بالنسبة للإنسان وبصفة خاصة ، الفنان ، هو الاستقبال والتلقى  
 والضياقة والإضافة . .

إن الصين حين تقول ( ين ) أى المؤنث تقصد المتلقى .  
 إن النفس البشرية مكونة من الثنائية المتضادة من الأنوثة والذكورة . .  
 كل صفات الجمال أقرب إلى الأنثى .  
 كل صفات الجلال أقرب إلى الذكر .  
 ولعل هذا سر انجذابهما أحدهما إلى الآخر . والإنسان المثالى عند  
 أفلاطون إنسان لا هو ذكر ولا هو أنثى ، ولكن مزيج منهما ثم أنشق قسمين  
 ولهذا عندما يجد شق ، الشق الآخر ، في الحياة ، يسعى إليه ويتكامل به  
 ومعه وهو ما يسمونه الحب من أول نظرة .

الرجل والمرأة والطفل

أى الذكر والأنثى والأمل .

وجئت عليه الفحولة في معاركه الأدبية والسياسية إذ دفعته إلى العنف  
 وورطته في خصومات لم يتأخر أصحابها عن التهجم العنيف . . .  
 ومرة أخرى ميزته وعييه ، الإرادة الحديدية . كانت هذه الإرادة وراء  
 إنكاره لمبدأ (١) ولعل ثورة العقاد على المرأة انعكاس للمعاناة من الفحولة

(١) اقرأ كتاب العقاد ( حياة قلم ) .



## والإرادة الحديدية .

ومن فحولته وإرادته أنه يرى الرأى فيغدو عقيدة .

شب العقاد في عصر افتقد الحرية فعرف الجمال بأنه الحرية مع أن الجمال عدل الحرية وصنوها . حتى التناسب وهو أحد مقاييس الجمال سلط العقاد عليه فحولة منطقة فيقول : ( . . . ) قد يتم تناسب الشكل في وجه قسم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط إليه روحك لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة في نفس صاحبه وذلك ما يسمونه بثقل الروح . . . . . ونسبع الأعضاء والأجسام وننظر إلى الفضائل والأخلاق فلا نجد خصلة من المصائل الجميلة المحمودة إلا وكان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة ) أكد هذا في ( مطالعته ) و ( مراجعته ) .

حتى الأشياء طبق عليها نظريته في الجمال الذي يراه تكاملاً بين الشكل وبين معنى يوحيه أو يضيفه ( فالمادة الصماء نفسها تتفاضل في الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الإرادة » فترقنا النيران والرياح والأمواه ، وتطلق في نفوسنا خوالج الحياة ، ونعاطيها شيئاً من العطف لا تعاطيه لغير الأحياء ، وليس لهذا فضل ظاهر على عامة الجماد إلا بما تخيله للناظر من حرية الإرادة ومحاكاة الحياة . ) .

لقد عاش العقاد شبابه في ثورة ١٩١٩ التي جعلت كل مصرى به الفنان يلهم بالجرية ويعتقها . ومن هنا تأكدت نظرية الحرية وصارت عقيدة ، حتى رفضه ( الوظيفة ) نابع من عقيدة الحرية .

اتخذ السياسة وسيلة لتحقيق الحرية بمعناها الواسع . . حرية البلد



وبالتالى حرية كل شيء فيه . وفى مقدمة مذاقيم الجمال والفن . . وقد كان هذا وراء دفاع العقاد عن الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى . . . كان موقفاً بطولياً رأى نفسه كرجل فكر وجماليات ملتزماً بالدفاع عن الحرية . ومع تقديره للحرية يعبد النظام خاصة فى حياته الفكرية . . . هنا تكون الحرية تنظيم القيود . . . إن لعبة كرة القدم لها قوانين ضابطة وأصول وقواعد . . فأولى الفن أن يكون له نظام مميز وإلا انقلب فوضى .

ومن الحرية ، اهتمامه بالفرد .

ومن الحرية ، حرية الشيوعية لأنها تلغى الفرد . . . واهتمام العقاد بالفرد تابع من ضمير البلد الذى ابتدع فن البورتريه .

حتى شكه الأول نوع من الارتفاع على النمطية وتحرر منها ... ولعل نصحه العقيدى الأخير مرجعه أنه وصل بنفسه لا بالتلقين ...

إن مركز الإيمان ليس الشعور ولكن الخبرة التلقائية الدينية من تنمية الذات تصل إيمان صاحبها مباشرة بالله .

إن من يعكف على نفسه يتحسسها ويفهمها يؤكد أهليتها للأهمية وهذا كرامة .. وهذه التجربة .. هذه المعاملة مع اللاشعور هى الوسيط الذى تتدفق من خلاله التجربة الدينية ، حين يفقد الإنسان الانطباعى الخبرة النفسية الناضجة التى تنسجها الدراسة المستأنية والتمحيص .

واستطاع الإسلام بواقعه وروائعه أن يكون رافعة وجدانية نقلت العقاد من القلق إلى مرتقى عال .

إن الوعي الدينى قدرة القلب البشرى على استشفاف المقدس فى الكون



أو في أعمال الإنسان ...

وغير هذا التدين فإنه ظاهرة . . . عادة قد تكون مجردة من الوعي الديني وقد تتحول إلى الضد . . . إلى نوع من الوثنية التي يحاربها الدين حين تكون التجربة الدينية خبرة مباشرة محققة ذاتية بوجود المقدس أي وعي ديني بلغ الوشد . ينسبون إليه أنه قال في مرحلة الشك حين سئل عن الله ( هانسيه يدور علينا هو ) . . . إذا صح صدور هذه القولة فقد يكون فيها من التسليم بالعجز ، إيمان يعدل ما في ظاهرها من التمرد . . . .

على كل حال لقد دور عليه وجابه وشغله لحسابه فكتب كتابه ( الله ) . . . ومن اهتمامه بالفرد واعتداده بنفسه هو ، أنه لم يترجم إلا مجموعة قصص قلما يذكرها أحد . . ثم عدل وإن كان أشرف على سلسلة لفرانكلين .

المترجم عادة في رأى الناس هو الرجل الثانى وهو معنى لا يطيقه العقاد . ثم لماذا يترجم آراء الآخرين وعنده جديد دائماً يعطيه ؟ وكما لم يترجم العقاد ، لم يكتب المسرحية ، لعمق إحساسه بفرديته . . . المسرحية تحتاج إلى معايشة الناس والانغماس في حياة كل يوم . . وهذه ليست عند العقاد المعتكف المتوحد . . .

وينسحب هذا الكلام على ( القصة ) . ولهذا نجد القصة الوحيدة التي كتبها « سارة » قصته هو (١)

(١) كتب العقاد في أوائل الثلاثينات قصة للسبيا تسمى ( أنشودة الفؤاد ) بل وكتب أغاني الفيلم . . ولكن العملية أو العمل أقرب إلى التكليف منه إلى الانبعاث الشخصى أو الفنى .



المسرحية أشخاص متباينون وعلى المؤلف أن يتقمص كلاً منهم ...  
 ترى هل يستطيع العقاد بعلمته أن يتقمص شخصية إنسان تافه أو مخطئ  
 أو منحرف مثلاً ؟ مثل هذا التقمص ليس عيباً في كاتب القصة بل قدرة من  
 قدراته ولكن طبيعة العقاد لا هي تستطيعه ، ولا هي ترضاه ...

المسرحية يبدل ويغير فيها الإخراج المسرحي فهل يطبق العقاد هذا ؟  
 والمسرحية لا تحمل اسم المؤلف وحده ... إنما اسم المخرج والممثلين ...  
 والعقاد فرد متفرد ...

المسرحية توزيع للذات .. والعقاد بجميع للذات وإدلال بها .. ودلال .  
 وحين أصدرت له دار الهلال قصة حياته ، خرجت في كتاب اسمه (أنا) ..  
 وسواء لدينا أكان هذا الاسم من عندياتها أم من اختياره هو ، فإنه بلا شك  
 استيحاء نافذ وتعبير صادق عن حقيقة ... إنه يؤكد من خلال هذا العنوان  
 ( الفردية ) : إنه يقول : أنا الفرد ، لا أناية ، ولكنه الإيمان بالإنسان ...  
 إنه يقول أنا الكاتب لا المنشئ ... فقد عاش في عصر العقاد ، الأديب  
 المنفلوطي الذي كان يصوغ بأسلوب شاعري ما يفكر فيه الآخرون أو يترجمونه  
 له . ولكن العقاد ، أو الأصالة ، هو الذي يفكر ويدعو ويتعاطف أو يشور ...  
 العقاد هو الكاتب لا المنشئ .

أما القصة فقد كان يفضل بيتاً من الشعر عليها ، لأن بيت الشعر يركز له  
 التجربة الإنسانية أو الموقف الإنساني في ألفاظ قليلة ووقت قصير سريع ...  
 ووراء هذا التفضيل خلفية من طبيعة العقاد وطبيعة القصة معاً ....  
 أما طبيعة العقاد فهو كرجل موسوعي يريد أن يقرأ ، وهو يفعل ، في شتى



أنواع المعرفة المتاحة .. وهو كرجل فكر ومسئولية يقرأ للمعرفة لا للتسلية أو حتى للمتعة الفنية ...

وهو كأسلوب شخصية أو شخصية ذات أسلوب كان منهجه في القراءة أن يقرأ في المادة العلمية أحسن ما كتب فيها ولأحسن كاتب في هذا ، بل إن الكاتب المختار يقرأ له خير ما في كتابه من الفصول الجامعة أو الفصول المركزة المقطرة تقطيراً ... خلاصة الخلاصة .

ولا يفرض العقاد هذه الطريقة على أحد فقد كان في معرض حديثه عن عبد الرحمن شكري يقول : ( إنه يقرأ أكثر مني ) ويستدل على هذا بأن عبد الرحمن شكري يقرأ حتى للكتاب من الدرجة الثالثة ... وجهات نظر .

رجل كهذا وخاصة بعد أن بلغ نضجه الزمني والفكري لا يمكن ولا يتسنى له ، أن يقرأ ما تخرجه المطابع من قصص مثينة أو ألفية ....

ودعنا قليلاً من العقاد هل نحن أنفسنا نطبق هذا ؟ إن القصص الطويلة لا تجد فسحة من وقت إلا عند الشباب .. أما حين يمتد العمر وتغلو الساعات فإنها تكون محسوبة ... والإنسان لا يعطيها إلا باقتناع وقدر ... وليس من هذا ، البذل للقصص الطويلة إلا إذا كانت قمة لها قيمة معينة ... وقد قرأ العقاد رباعية الإسكندرية للورانس داريل وكتب عنها كتابة من استوعبها .

إذن تفضيل العقاد الشعر على القصة له مبرراته المعقولة ولو من زاويته هو ، فليس كل قارئ أو حتى كاتب عنده هذا ( الانضباط الثقافي ) الذي كان يعيشه العقاد .

ولا وجه هنا للحديث في هذا المجال عن الأشكال الهندسية وتشبيه فضل



الشعر على القصة بفضل الدائرة على المربع كما يقول بعض ناقديه .

ويبلغ من اعتزاز العقاد بإنسانيته وشخصيته وموهبته أنه وقف شعره على نفسه والناس في وقت سار فيه الشعر في بركاب السياسة والإمارة فدواوينه الأولى أفكار وأعماق وتأملات ... أما دواوينه الأخيرة فغنائية تعبيراً عن الإنسان فيه ، عواطفه وآلامه ...

والشعراء عادة يبدؤون بالغنائيات وينتهون بالتأملات ولكنه العقاد الشخص والظروف .

وبراء بعض النقاد في احتفاله بالفرد ، مرحلة لاحقة ومكملة لمرحلة الأفغاني والشيخ محمد عبده ولطفي السيد الذين كانت رسالتهم دعوة إلى « تعقيل الحياة » وترشيد الوعي ، فكان العقاد بشخصه ودعوته ، علامة لدور جديد يجد فيه الإنسان المصري نفسه ، ويحترم ذاته وكرامته .

لم يفرغ بعد حديث الحرية ... فقد كانت معنى يلح على العقاد في نثره وشعره وسلوكه وتصرفه .. كانت الحرية بالنسبة إلى العقاد قولاً وعملاً وكتابة لا شعاراً للزينة .

لقد ورد العقاد والملازمي الأدب الإنجليزي وكثيراً ما كانا يقرآن معاً مرجعاً بعينه أي أن ثقافتهما الغربية واحدة أو متلاقية . وكانا في الحياة متلازمين على امتداد أربعين عاماً ... وكتب الملازمي كثيراً عن الحرية .. ولكنها لم تكن عنده التوتر المتوفر كما كانت عند العقاد .

وصف الملازمي - نثراً - العصفور ، وصفاً كأنما هو بدع ريشة مصورة ملونة .  
ووصف العقاد - شعراً - العصفور فكان خط الحرية هو بيت القصيد ....



عصفور المازن ( يذهب إلى حيث يشاء ويخلق في الجو ويسبح في الفضاء .  
ويصير وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء ... عصفور ينحدر على شعاع  
من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر .. عصفور يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى  
في فمه الدقيق قطرة من المطر ... عصفور يحط على أعلى فتن في أسمى  
شجرة ، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع  
بيضه الصغير في حيث يروقه أن يؤلف عشه .. ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده  
ويعص قطرة ويتلفست ... عصفور لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون  
في رأى العين مع ذلك إلا جميلاً ... آه إنه روح الكون ولا شك في العصافير  
والسحب سابعة تجوب الآفاق ، وفي الأزاهر والأشجار التي لا تكون إلا عطرة .  
ولا تبدو إلا حالية موقفة ولا يعتورها قلق ، ولا يساورها اضطراب ) .

وعصفور العقاد بين الأيك والأيك ... بين السحب والروض .. بين الماء  
والشجر طائر مرفرف حتى بين الشباب والشيخوخة لا يسكن له جناح « مرفرفاً  
قط ما استقر » .

طار وليدًا وطار شيخاً بين البسوساتين والغدير  
وهو سعيد سعيد لا يعنيه بل لا يخطر على باله الجنود والحشود والعروش  
والتيجان وما ينجم عنها ويعلق بها من مداهنة ومدارة وخوف وحذر وكل ما يكبل  
الإنسان من قيود تغتال حرشته ووجوده :

حَطَّ عَلَى الْغُصْنِ وَانْحَدَرَ	أَقْلَّ مِنْ لَمَحَةِ الْبَصَرِ
مَفْسُوداً قَطَّ مَا تَوَاوَى	مُرْفِرفاً قَطَّ مَا اسْتَقَرَّ
كَخَيْفَةِ الطُّفْلِ فِي صِبَاهِ	لَكُنْهَا نَجْفَةُ الثُّمُنِ



وَرُوْدُهُ نَفْبَةٌ فَأَخْرَى      مِنْ خَوْفِ الطَّائِرِ الصَّيْدِ ؟  
يُقَارِبُ السُّحْبَ ثُمَّ يَهْوَى      يُبَشِّرُ الرُّوحَ بِالْمَطَسْرِ  
أَصْدَقُ مِنْ سَارٍ فِي سَرَارٍ      بَيْنَ الْحَيَاةِ الْعَذْبِ وَالشَّجَرِ  
وَيَسْتَحِثُّ الرِّيحَ ضَرْبًا      بِخَافِقَتَيْهِ فَيَتَبَدَّلُ  
أَخْبِرْ . بِالنُّفُوحِ مَقْلَتَسَاهُ      مَنْ سَقَى الْحَبَّ أَوْ بَسَلَهُ

سَلَهُ عَنِ الْجُنْدِ وَالزُّمَرِ      سَلَهُ عَنِ الْمُلْكِ وَالسُّرْرِ  
لَمْ يَأْتِهِ عَنْهُمْ بِسَلَاغٍ      وَلَا دَلِيلٌ وَلَا خَبَرٌ  
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ فَاغْبِطُوهُ      عَلَيْهِ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ

ومع هذا لا تخلو حياته من المشاكل - وهل خلت حياة العقاد على الرغم من تركه للناس المناصب والمنافع والعروض ؟ ففى حياة العصفور الصغير الكاسر ، والنسر الجارح ، والشرار والشباك .

حَبَائِلُ الدَّهْرِ قَانِصَاتٌ      مِنْ طَارٍ أَوْ غَاصٍ أَوْ خَطَرٍ  
إِنَّمَا الْحَيَاةُ دُخْرٌ لِمُصَاحِبِهَا      وَحَارِصٌ الدَّخْرِ فِي خَطَرٍ  
وحين تهون على ناس أعمارهم يريقونها على الأرض ، أى على أعتاب الممدوحين ، يرى العقاد أن الطير المفرد هو الشعر كله ( لأنه هو الطلاقة والربيع والطرب والعلو والتعبير والموسيقية . فمن لم يأنس به ، لم يأنس بما فى هذه الدنيا من طبيعة شاعره ولم ينتلج له ضمير بما فى الحياة من فرح وجيشان وتعبير) وهكذا وصل العقاد بشعره ونثره بين عالم الطير وعالم الشعراء . إنه من هذه الزاوية يذكرنى بشيللى فى قصيدته الجميلة عن ( القبرة ) .. إِنَّا نَرَى الْقَبْرَةَ



كثيراً ويبدو أنها دخلت في خية الروتين ولكن « شيللى » شاعر لم ( تترنون ) رؤيته ... وكم غشى الروتين ، الرؤية وكم طمس أخرى . ولكن هذا بالطبع غير إشارات أخرى تزوج بين عصفور العقاد وقبرة شيللى . وليس بين عصفور العقاد وقبرة صاحبه إلا خط خلو بال الطائر من العروش وأصحابها والعروض والزيوف . ولكن العقاد يستقل بوصف حركة العصفور ودياه كما يستقل ببعده آخر ... وهو آفة ( حبائل الدهر ) التي تقتص كل شيء مهما ابتعد بنفسه .. تقتص كل ( من طار أو غاص أو خطر ) ...

العقاد منذ عشرات السنين يرى في الطير عوالم شتى :

كل إلف له من الطير إلفٌ      هكذا تجمل الحياة وتصفو  
أملٌ يرتقى ، وحبٌ يُناسجى      ولسانٌ يشدُّ وقلبٌ يرف  
بك خفّ الجناحُ يا لها الط      يرُ وما كنت بالجناس تخف  
لطفٌ روح أعار جنيتك ريشاً      فمن الروح لامن الريش لطفٌ  
ليس يُنميكَ للسماء جناسُ      بل غناءً عن الضياء يشف  
إن مضى الناس يعجبون قديماً      كيف تعلو؟ عجبتُ كيف تسف

حقاً إن الطيور فيها من جمال الصياغة وتنوع الشكل ووفرة اللون ، وخفة الحركة في الأرض ، ورفة الجناح في السماء ما يجعلها من أجمل ما خلق الله . إن الريشة في حسن نظامها ودقته وحسنة ورياضة منحنياته ، وفي تمامه ، ولمسه ، وفي تماسك نسجه ، مسرح كبير للفكر ...

فيض كبير تستطيع أن تسكبه ريشة من جناح طائر ....

ولأمر ما وضع المصريون القدماء قلب الإنسان في كفة ، والريشة في كفة .



إن القلب الذى يعادل الريشة فى هذه المعانى له جنة النعم ...  
لو تأملنا الجناح لأحسنا أنه موجة بحر فى صورة أخرى من التشكيل ..  
كم فى الطيور من سحر أشكال وألوان . إن الطبيعة فى باب الطيور  
كالمنى الشرقى الذى يسهر الليل مع الليل ( يقسم ) ويقول : يا ليل .  
الطبيعة فى باب الطيور تبدع أنماطاً مختلفة .  
وفى باب ( الحيوان ) تخلق أنماطاً متعددة وكذلك فى باب ( الحشرات ) .  
والقرآن الكريم يقول : ( وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه  
إلا أتم أمثالكم ) . ( سورة الأنعام : آية ٣٨ ) .  
من معانى الطير عند العقاد ، من واقع عبارته ، ( العلو ) ..  
إن الطير فى طيره رمز للنفس الإنسانية فى تحليقها وشوقها إلى السامى ..  
إلى العالى .. رمز تطلعها ...

لقد تصور الغزالي فى رسالته ( منطق الطير ) الطيور ، رموزاً ، للنفوس ...  
وكان هذا منطلقاً للشاعر الفارسي فريد الدين العطار الذى نظم قصيدته الرائعة  
منطق الطير ....

والروح أغلى وأعلى ما فى الإنسان ، صورها ابن سينا فى صورة طائر  
فى أبياته :

هبطت إليك من المثل الأعلى	ورقاء ذات تعسّر وترقّع
محجوبة عن كل مقلع عالم	وهى التى سقرت ولم تنبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهى ذات تفجع

كما كان السهروردي يرى الروح ( عصفوراً ) والجسم قفصاً .



العقاد إنسان حساس وشاعر في نظرته رهافة وشمول - ومن الناس من يستخدم عينه جهاز إخطار . إشارة فقط - فهي نافذة إلى عوالم شتى ونافذة على دنى عريضة . إن نسيج الحياة فيه من الطيور والنبات والإنسان . والنظرة المقتصرة أو المبتسرة تورث الاضطراب ...

أن ندرك الطبيعة ككل هو الاتزان بعينه . فالحياة ليست أشتاتاً متفرقة ولكنها وحدة متكاملة . حتى ليقول العقاد للكروان :

أنا لا أراك وطالما طرق النُهي	وحي : ولم تظفر به عَيْنَانِ
أنا في جناحك حيثُ غاب مع الدُّجَى	وإن استقرَّ على التَّرى جُثَيَّانِ
أنا في لسانك حيثُ أطلقه الهوى	مرحاً ، وإن غلب السرور لسانِ
أنا في ضميرك حيثُ باح فما أرى	سراً يغيبه ضميرُ زماني
أنا منك في القلب الصغير مساجلُ	خفق الربيعُ بذلك الخفقَانِ
أنا منك في العين التي تهب الكرى	وتفيضُ بالصَّحَوَاتِ والأشجانِ
طيرُ في الظلام بمهجة لو صافحت	حجر الوهاد لَهَمَّ بالطَّسيرانِ
تُغْنِيكَ عن ريش الجناح وعزمه	قَرَحَاتُ منطلق الهوى نَشْوَانِ

كل هذا الخفق من المشاعر ، والدفق من المعاني يهديه العقاد الكروان ..

حين يقول بعض الناس الطير ويقصد ( الدبان ) . . . . ١ .

فإذا ارتفع قليلاً كانت الطيور هي العصافير . . . . ١ .

بل أهدى العقاد ، الكروان ، ديواناً كاملاً ( هدية الكروان ) مع أن الشعر المصري لم يلتفت إلى هذا الطائر المصري حتى ليعجب العقاد في مقدمة الديوان :



من العجيب أنك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ،  
على كثرة ما يُسمع الكروان في أجوائنا المصرية من شمال وجنوب !  
وأعجب منه أنك لا تقرأ فيما ينظمون إلا مناجاة البلبل وأشباهاها  
على قلة ما تُسمع في هذه الأجواء !  
فكأنما العامة أصدق شعوراً من الشعراء ، لأنهم يلقبون المغنى  
بالكروان ولا يلقبونه باللبل ، فيصدرون عن شعور صادق ويتحدثون  
بما يعرفون .

إن كثيراً من شعر العقاد الذى لا يقرؤه الكبار يجب أن نعلمه الأطفال  
لنربطهم بروعة الحياة ، أو نعلمه الأم المصرية لتكون سباقة إليه قبل  
طفلها حين يكبر حتى لا يقول مقالة ذلك الذى قال عن أمه ، يكفيها  
فخرأً أني لها ابن ، امتداداً لادعائه النبوة .

من أوصاف الأدب العربى للسعيد ، القول : غنت بلبله . . .  
وهذا القول رمز عندى إلى أن داخل الإنسان فيه عوالم شتى منها الطيور . . .  
فإذا كان سعيداً تغنى بلبله . . . وإذا كان تعبساً متعطراً تنعق في داخله  
البوم والغربان ، وإذا كان ثرثاراً تنق فيه الضفادع . . . وهو بالغناء  
والنعيق وبأشياء أخرى كثيرة ، إنسان . . .

إن في حديث العقاد عن الكروان تربية للوجدان . . .  
والشعراء عندنا ينمون وجدان الناس على المستوى الألقى . . .  
البارودى شاعر عظيم . . . نفخ التراب عما عندنا من جيد . . .  
وهذه بلا شك مرحلة . . .



وشوق عارض الأقدمين وتفوق عليهم أحياناً كثيرة . . . ووفر لشعرنا أصواتاً كثيرة وملاءة موسيقية . . . وهذه مرحلة .

عندنا في العربية رثاء كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام الموت .  
عندنا غزل كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام أجمل العواطف الإنسانية .

عندنا الكروان والعقاب والعصفور وكل ما ألهم العقاد الشعر لا الكلام ،  
ولكننا مررنا به بلا عطف أو تفضلنا عليه بالوصف ولكن من الظاهر  
لأننا انشغلنا باللغة لا بآفاق النفس واللغة مطلب يسير . . .

هل يفترق الكوز من البحر وهو كنوز ، أكثر من قطرات ؟ . .

ولكن الغواص إلى الأعماق يظفر باللؤلؤ والمرجان . . .

لماذا قال القرآن الكريم : ( وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . . أَلَمْ تَرَ  
أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ) .

( سورة الشعراء : آيات ٢٢٤ - ٢٢٦ )

لقد انتهى الصديق . . مثل هذا الشعر صناعة . . لقد أزرى القرآن  
بمثل هذا الشعر وهو أروع كتاب لا من الناحية الدينية فحسب ، ولكن  
من الناحية الأدبية الفنية الجمالية . . ولكنه رأى الشعر الجاهلي الموجود  
وقت نزوله هواية وغواية يتنزل بالنفس حين يرتفع هو كأدب حقيقى راق  
بالنفس ويسمو بها . . .

وحتى اللغة كثيراً ما أسأنا إلى الألفاظ والمعاني . . فحرفنا معنى الحنبلة  
إلى الحذقة والصرامة الصارمة ، مع أن الإمام أحمد بن حنبل من أرق



الأئمة وأوسعهم أفقاً .

ولفظه ( البركة ) التي تعنى الزيادة والخير والنعمة أخرجناها عن مدلولها وأدخلناها في جو السهولة .

ومثل هذا لفظ ( الفن ) الذي يعنى في التخريج الجديد ، البوهمية . فإذا لم نحرف الكلم عن موضعه ، قلق به من التكرار المستوم، موضعه . فنقول ونعبد حضارة سبعة آلاف سنة حتى باتت العبارة وكأنها اكتفاء وإيحاء بالجهد الجهد وبالتالي النوم والراحة . . . مع أن سبعة آلاف سنة معناها عبء ومسئولية وكثر يستوجب السهر للحفاظ عليه .

\*\*\*

والعقاد الشاعر والكاتب والمفكر يقدر مع الحرية الفن والفنان : والشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ والشاعرُ الفذُّ بين الناسِ رحمنٌ والفن عند العقاد أعلى وأعلى من الأغراض والمنافع . . إنه الحياة مصفاة من الرثابة والآلية وغبار الاحتكاك اليومي . . . الفن عنده كشف لا وصف من الظاهر الخارجى . . .

( الأمة بغير علم ، أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور . . . والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير . . . والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرقة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التي نخلت من الفنون لأن الفنون تعبير الأمم عن الحياة ) .

وليس بفن عند العقاد الخطوط الصماء أو التصوير المحسوس . . .



ليس بفن عند العقاد ما لا يحمل رؤى ممتدة تصل قلوبنا بقلب الفنان .  
فالظمان لا يجديه شيئاً وصف الماء ولكن يرويه الشرب . . المذاق . .  
الذوق بكل ألوانه شيء ليس في الكتب . . إنه كما يقول العقاد استعداد  
خاص وبذلك خاص .

ليس المخطوط الصماء ولكن أناقة المبنى ولطف المعنى وتصاعة الشكل . .  
حشد من الدختر والبشر .

الدختر حين تنبتق الراحة من فرط الدقة ، وتكسو البساطة غزارة  
التركيب كالزهر يهر بالألوان ، ولكنه بعد اللون عالم فسيح للفن . .  
وللعلم . . وللحياة . . أما البشر فسر من أسرار الشخصية المصرية . .  
إنه يغطي بحرًا من المموم . .

ولأمر ما يقترن في ذهني وشعوري ، الفن ، بالآية : ( يرزق من يشاء  
بغير حساب ) فعطاء الفنان ، وقد يكون في عمل واحد ، قدره وتقديره  
بغير حدود . . . وإلا فأى حساب يقابل الموهبة نفسها ؟  
يقول العقاد في غنائه للكروان إذ يرفرف في الهزيع الثاني :

يحدو الكواكب وهو أخفى موضعاً من نابغ في غمرة النسيان  
ما ضر من غنى يمثل غنائه أن ليس يتطش بطشة العقبان

إن الجمال والفن قيمة كبرى عند العقاد . . . دونهما بكثير القوة  
والسطوة . . . ولغة الموسيقى أغنى عنده من لغة الحروف :  
أغنى الكلام عن المقاطيع واللغى بث الحزين وفرحة الجدلان



وهو يقرن بين المعرفة والموسيقى :

مُعَلِّمَةَ الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ يَعْلَمُ      وَقَائِلَةً مَا لَا يَبْشُرُ بِهِ الْقَلَمُ  
أَعْيَدِي عَلَى الْقَوْلِ أَنْصِتْ وَأَسْتَمِعْ      حَدِيثاً لَهُ فِي نَوَاطِئِ الْقَلْبِ مَيْسَمٌ  
حَدِيثاً يَنَاقِشُنِي وَأَذْكَرُ أَتَنِي      تَسْمَعُهُ وَالْقَلْبُ وَشَتَانِ بِحُلُمٍ  
وَأُوغِضُ بِالذِّكْرِ فَأَزْعُمُ أَنْسَه      قَدِيمٌ كَعَهْدِ الْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَقْدَمُ  
أَعْيَدِي عَلَى الصَّوْتِ أَنْظُرْ لِعَلَّنِي      أَرَى فِي ثَنَائِ اللَّحْنِ مَا يُتَوَسَّمُ  
وَيَا رَبُّ وَجْهٌ يَطْرُقُ السَّمْعَ حَشَنُ      إِذَا غَنَّتِ الْأَوْتَارُ أَوْ يَتَنَسَّمُ

والجمال والفن جوهرهما عند العقاد ، الصديق . . . إن مقياس العمل الفني ليس العرق كالأعمال اليدوية وحتى هذه ليس العرق وحده مقياسها فقد يعرق المرء لأنه يعمل خطأ . . . ولكن المقياس أن يكون العمل إنسانياً أى مترعاً ببشرية العامل وجبه له ، وأن يكون الفن صادقاً وأميناً منبثقاً في لحظة خلوص . . . والخلوص نقطة لا ترى . . . نقطة تلاقي الكيان الإنساني بمذخوره ، مجمعا ، في سن القلم أو الريشة عند ملاستها للصفحة أو اللوحة .

هنا يكون الفن عطاء قلب . . . وفيوض روح . . .

والفنان الصادق عند العقاد رؤية جديدة للحقيقة . . . كشف لها في داخل نفسه وخارجها . . . فهو يتفتح بالبصيرة النافذة ، للحقيقة حوله وفي أعماق نفسه . حتى الصورة الفوتوغرافية محكمة برؤية المصور نفسه . ورؤية العقاد لكثير من أعمال الفنون التشكيلية وكتابته عنها ونقده التطبيقى لها ، رؤية بصيرية ، وكتابته (ساعات بين الكتب) هو في



الحقيقة أيام بين المعارض والمتاحف أيضاً ، كما أن بيته ليس مكتبة أدبية ضخمة فحسب ، ولكنه بيت يضم مع المكتبة مجموعة موسيقية عظيمة ومجموعة لوحات تتقدمها لوحة ( أنس الوجود ) للفنان هدايت ، ولوحات من فن فنانينا شعبان زكى ولييب تادرس ومحمد حسن حتى ليقول الفنان الأستاذ بدر الدين أبو غازي :

( ليس من جيل العقاد مفكر أو أديب مثله عكست كتاباته اهتماماته بالفنون وأفصححت منذ البدء عن وجهة نظري بل عن يقين في ضرورة الفن للمجتمع ، وعن مدلول الفن الجميل في نظره ، ومصاحبة العقاد في كتاباته تطلعنا على منهج متماسك في النظر إلى الأعمال الفنية . ويصدر عن خلفية فلسفية لمعنى الجمال عنده ، ويقدم أمثلة تطبيقية تشير إلى ذوقه ومطالبه من العمل الفني ، ويحدد مدارس وأعمالاً يؤثرها بحبه ) .  
لقد نقد العقاد ١٩٢١ النموذج الأول لتمثال نهضة مصر وأخذ على الفنان محمود مختار ما في أبي الهول في النموذج من ملامح بظلمية . .  
وقد وقع هذا النقد من الفنان المثال مختار موقع الأهمية العلمية لصحته ودقته فأخذ به وأخرج أبا الهول ، على هدى رأى العقاد ، في صورة مصرية فرعونية .

والعقاد الفنان داخله مملوء النفس بمجالي الطبيعة ونداءاتها فهو :

كلما أشرقَ في الليل القمرُ  
وسها الناسُ ولاذوا بالحُجرُ  
خلت أرواحاً تداعتُ للسمرُ  
زُمرأ تهيس من حول زُمرُ



أَنْ هَذَا الْحُسْنَ لَا يَمُضِي هَذَرٌ  
حَيْثَا أَسْفَرَ نَوْرٌ وَانْتَشَشِرُ

( ديوان وحى الأربعين )

في النور يحلو في عينه . . عين الفنان كل شيء :  
في الليلة القمرء ما أحتل النظر لكل شيء لاح في ضوء القمر  
حتى الترى ، حتى الحصى ، حتى الحجر

فإذا تنفس الصبح تهلل العقاد وهلل للنور . للحياة :

صَفْحَةُ الْجَوْ عَلَى السَّرِّ	قاء كالخَدِّ الصَّقِيلِ
لمعة الشمس كمين	لمعت نحو خليل
رجفة الزهر كجسم	هزته الشوق الدخيل
حيث يمت مروج	وعلى البعد نخيل
قل ولا تحفل بشيء	إنما العيش جميل

(إنما العيش جميل) وهو الذي لاقى فيه أهوالاً . ولكنه الفنان فيه  
الذي يحس ( رجفة ) الزهر و ( هزة الشوق الدخيل ) . إنه الفنان فيه  
الذي يسعده أبسط الأشياء في أعين الناس وإن كانت أكبرها في عينه  
هو . . . .

حتى سهولة الكلمات في هذه الأبيات تنم على نفس راضية منبسطة  
متطلقة ، في ذلك الوقت على الأقل ، هذه البساطة تكاد تجعل الأبيات  
على غزارة مشاعرها عفوية . . . بريئة ، طفلة . . .  
إنه العقاد الذي يرق هذه الرقة كلها في الشعر وهو نفسه العقاد







الذى اشتغل بالسياسة على أنها قضية حرية . وفي سبيل هذه الحرية والوطنية فجر قبلتين في البرلمان في ٢٣ يونية عام ١٩٣٠ مهدداً الملك فؤاد بتحطيم الرأس الذى يعتدى على الدستور ، فإذا بالوفد حزب العقاد تأخذه المفاجأة المدوية كالقصر سواء بسواء بل كان العقاد أحياناً يعتمد تصعيد الهجوم حتى لا يترك للوفد وهو حزبه طريقاً للمهادنة أو المساومة . وكانت صيحة العقاد علامة كبيرة نبذت الأحزاب خلافتها على أثرها لتلتقى على طريق الدستور تعيده إلى البلاد .

وسرت اليقظة في الحياة المصرية فظهر الفدائيون وسمع للمتفجرات دوى كأنه تجديد لدوى الكلمة المجلجلة . . . وسارت المظاهرات .

وأسرّها القصر للعقاد . . . بل إن المعتدلين من نواب حزب الوفد استنكروا جرأته ! حتى رئيس الوفد لم يكن راضياً ! رئيس آخر كان راضياً وملياً ذلك هو الشعب .

كان العقاد على بسطة الجسم وفراحة الطول ، ضعيف البنية ، ضعيف الصدر خاصة ، يتوق البرد والحر ويتحرى ما يأكل وما يدع . . . ومع هذا استقبل الحكم عليه بالسجن ثابتاً من وثوق ، وإثقا من إيمان بالله والرأى والوطن .

ودخل السجن وهو يعرف ما ينتظره فيه من تهديد لحياته ، مرفوع الرأس . وخرج منه مرفوع الرأس رفيع التصميم . . . لم تهدأ له ثورة داخل القضبان . . . وحين انتهت المدة خرج من



السجن ليقول بيتيه العتيدين :  
 وكنت جنين السجن تسعة أشهر      وهأنذا في ساحة الخلد أولسد  
 عِدائِي وصحبي لا اختلافَ عليهمو      سيُعهدني كلُّ كما كان يَعهد  
 لجأ القصر إلى المصانعة فعرض عليه أن يكون مدير الإدارة العربية فرفض .  
 عرض عليه العارضون منصب مدير دار الكتب فرفض .

ويرتقى العرض فيما بعد إلى منصب مدير الجامعة فرفض !  
 وفي وزارة الائتلاف الدستوري تعرض عليه الوزارة فيرفض .  
 لم يستهوه منصب أو جاه أو منفعة فقد أسقط هذا كله من حسابه  
 مع كثرة ما عرض عليه منه . . . إنه لا يريد لأحد عنده من نعمة تُجزى  
 حتى الوفد ثار عليه حين أنكر منه ما لا يرضيه . . . لهذا لم يدع استبداداً  
 في أي صورة من الصور إلا حمل عليه مستجيباً لنداء الكرامة والفكر معاً . . .  
 إنها رسالة الكاتب عرف الأمانة فيها ، وشرف الكلمة والرأي والضمير . .  
 ( عباس محمود العقاد ) .

لو أن العقاد بتركيبته هذه ، جاء بعد القرن العشرين أي بعد أن  
 فرغنا من عملية نفض الركाम - في الأدب والسياسة على السواء -  
 وإرساء قواعد النهضة والتطلع إلى الغرب ثم اللحاق به وما يجري هذا  
 المجرى في الميادين الأخرى من مصاولات أدبية وتيارات فكرية . . إلخ  
 لو جاء العقاد بعد مرحلته التاريخية التي شدته إليها وغمسته فيها بحكم  
 منطقها . . . لو عاش متخففاً من هذا كله لأعطى العقاد عطاءه كاملاً  
 بلا تشتيت أو تفتيت في النفس والجهد . . . فعند العقاد من الأصالة

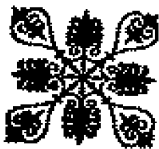


والفحولة الفكرية ما يعطى معه على الصعيد العالمى .  
 ولكن لعل هذه المرحلة التاريخية من حياة وطنه هى التى أصّلت  
 دوره فى حياتنا الفكرية بما أصّله من معان ومضامين وإرساء قواعد وأفكار .  
 إن الدكتور ( طه حسين ) أستاذ أدب .  
 أستاذ جامعة ورجل دولة .  
 أستاذ يشرح ويفصل ويطوف ويربط وينقد ويعرض . . . ويستوزر  
 ويحكم ويتمتع بهالات وشيآت .  
 الدكتور طه حسين بهذا كله أستاذ أدب ورجل دولة .  
 ولكن العقاد رجل فكر وراهب صومعة .



البَابُ الثَّانِي

الشَّخْصِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ









## الفصل الأول

### عقريات العقاد

الكتابة عن العبقرية والبطولة أو العباقرة والأبطال خط واضح مميز في أدب العقاد . وهذا الخط له أهمية خاصة عند الدارسين ، فهو عنوان تندرج تحته عناوين كبيرة من حيث الموضوع والدلالة . فالشخصيات الإنسانية التي كتب عنها العقاد منها ما هو أدخل في فن التراجم ومنها ما هو مزيج فني بين الترجمة والدراسة الأدبية . وهي في الحالين وعلى أي الصورتين مفتاح من مفاتيح نفسه هو ، وشخصيته هو ، بل لعلها أهمها جميعاً وأقربها إلى دخول عالمه . . . الأدبي والإنساني .

وليست الشخصيات التي كتب عنها العقاد كلها من طراز واحد هو طراز العبقرية والتفرد المميز أو الامتياز الفرد ، فقد كتب العقاد عن عمر ابن الخطاب ، وعن عمر بن أبي ربيعة ، بل ظهر كتاباه عنهما في وقت واحد . ابن الخطاب بما في شخصيته الرائعة من مذكرات للكتابة وموضوعات للقلم ، وابن أبي ربيعة . . يحسن بي أن أترك الميدان لفارسه ، يقول الأستاذ العقاد : ( ابن أبي ربيعة ولا ريب ظاهرة أدبية ، وظاهرة نفسية قليلة النظير في الآداب العربية ، وحقه في الدراسة كمحق جميع الشعراء المعروفين بجهة الفن وصدق التعبير . . وإنه لفي الطليعة الملحوظة من هؤلاء ) (١)

---

(١) ص ٧ شاعر الغزل .



أما كون ابن أبي ربيعة شعره كله غزل وديوانه كله رسائل غرام فلا يثير دهشة عند العقاد : ( لأنه كان يعبر عن حاجة من حاجات عصره تنسج لدواوين )<sup>(١)</sup>.

فابن أبي ربيعة يستحق الكتابة بما يمثل من حقيقة عصره : ( وإن لم يكن أفضل شعرائه نظماً ولا أبرعهم قصيداً ولا أقدرهم صناعة ، على إجادته الموفقة في أبيات ومقطوعات )<sup>(٢)</sup>.

كما كان في شعره يمثل حياته هو أصدق تمثيل ( وإن أصدق الشعراء فناً وحياة لمن تعرفه بديوانه وتعرفه لديوانه )

وكتب الأستاذ العقاد عن النواصي بما هو ( شخصية ) يعرفها المتأدبون والقارئون والأميون على سواء بينهم وإن تفاوتوا بعد هذا في ناحيته الفنية . ( شخصية تحجب حقيقتها - على الشهرة والذبح - أغطية كثيرة جعلت دراستها النفسية ودراساتها التاريخية موضوعاً يستحق الكتابة بما يبرز من هذه الحقيقة من وراء تلك الأغطية المضللة . وحسب الكتابة أن تمحص حقاً وتدحض باطلاً وإن كان ( موضوع ) الحقيقة شخصية مأمونة كأبي نواس الذي لا يشفع له إلا عزو آفته إلى الضعف والشعور المغلوب لا إلى الشر والأذى )<sup>(٣)</sup>

ولئن كان حبه مشوباً بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع

(١) ص ٢٩ شاعر الغزل .

(٢) ص ٦٢

(٣) ص ٧



في وجدانه وذوقه ، وكان له في تلك المحاسن كما يقول العقاد وصف  
يكسو الحياة زينة ويصقل ما انحشوشن من شدائدها وأكدارها على نفوس الأحياء .  
ويتساءل العقاد في عطف ظاهر على الضعف الإنساني :  
( هل زادت عيوب أبي نواس مقدار الرذيلة في الدنيا ، إن المقدار  
ليختلف هنا مع المقدارين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس  
والبيان )<sup>(١)</sup> .

• • •

دراسة العقاد لطرز مختلفة من الشخصيات فيه لون من المقابلة يعتمد  
إليها لأنها في نظره وتقديره ( أنفع الدراسات النفسية فهي دراسة نافعة  
لفهم حقيقة الإنسان وفهم حقيقة الجماعات ، ونافعة لكل من يعنيه  
أن يحسن تقدير الأعمال الكبرى والدعوات الشاملة . . ونافعة لمتعة  
العقل وتوسيع آفاقه )<sup>(٢)</sup> .

لقد تناول العقاد أنماطاً مختلفة من الشخصية وترجم لهذه الأنماط  
كلها بل ترجم العقاد للشيطان . ويبدو أن الشيطان أعدته مثاليات العقاد  
فكفر بالشر ، وظفر بالعرف وإن كان هذا لم يدم طويلاً إذ غلب الطبع  
التطبع ، فاستكبر وعصى فاستحال حجراً ولكنه الحجر الذي يفتن العقول  
والألباب من خلال الصور والتماثيل الذي يتشكل فيها .  
ليس الشعر وحده من وادى عبقر ولكن الفن التشكيلي أيضاً . .

( ١ ) ص ١٩٧ أبو نواس الحسن بن هاني .

( ٢ ) ص ١٨٣ • • • • •



وقصيدة (ترجمة شيطان) فجرت في الأدب العربي آراء ومواقف لعل أبرزها وأظرفها موقف الدكتور طه حسين فقد قال عنها : ( . . . قصيدة لن ينقضى إعجابي بها . وقد أقرأها عشرين مرة أو ثلاثين . . . والسبب في ذلك أنني أجد فيها كلمات قرأتها معنى جديداً ، أو معاني جديدة . ثم هذه الطرافة المدهشة . وتستطيعون أن تبحثوا عن مثلها في الشعر القديم فلن تجدوا لها شيئاً ) ومن أجلها قال : ( ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدياء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه ) .

وتهامس الخبثاء إنه يخلع عليه إمارة الشعر لتخلوله إمارة النثر . وما كان العقاد أو طه حسين في حاجة إلى التقسيم أو المقايضة الأدبية فإن تصدرهما لدولة الأدب يغني فيه الواقع عن التنصيب والتلقيب . ومن الطريف أن الدكتور طه حسين على إثر محاولات نقدية بينهما ، أنكر أنه بايع العقاد بإمارة الشعراء ! في مقال له بجريدة الجمهورية .

\* \* \*

ما هو الخط الرابط بين النماذج المختلفة التي قدمها لنا العقاد ؟ لقد تناول ألواناً مختلفة من الموضوعات بينها من التباين ما بين فلسفة هيوم ومجون أبي نواس . والعقاد لم يلتزم منهجاً واحداً في كتاباته اللهم إلا إذا استثنينا عبقرياته الإسلامية فهي تكاد تكون ذات طابع واحد . ما هذه الأنماط . . ما هي ؟



ما هذه المناهج ؟

ما هذه الموضوعات ؟

ثم ما هي القيم الفنية والإنسانية التي تعطيها ؟

ما هي الدلالات الكامنة فيها ؟

أسئلة يحاول هذا الكتاب أن يجيب عنها . . وأن يوفيهها . .

تكلم العقاد عن سمو الإنسان في محمد الرسول ، والمسيح ، وأبي بكر الصديق ، وغاندى ، والشيخ محمد عبده وعن عبقريته في عمر ، وعن شاعريته في عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة ، وعن إبداعه في شكسبير وبرناردشو وجيته ، وعن طاقاته الخالقة والفاقة في ابن سينا وابن رشد ، وعن علمه في فرانسيس بيكون . وعن ملكات القيادة فيه . . في سعد زغلول ومحمد علي جناح ، وبنيامين فرانكلين .

كل في مجاله ، شخصية . . والشخصية في فكر العقاد وأدبه قمة الوجود الإنساني . . تكامل الكيان البشري نحو قيمة جديدة . . وينطبق هذا عنده على الأمم كالأفراد . . فالشخصية بالنسبة إلى الأمم خلق حضارى كالذى فعلته مصر والهند والصين في العالم القديم .

طريق طويل أو عوالم شتى . . يفضل فيها بلا مراء من لا يعرف كلمة السر . . أو سر الكلمة . . الكلمة التي قالها العقاد في كل واحد من هؤلاء . هذا السر هو هديسه للفرد وهديسه للذاتية ، ذلك التقديس الذى يقف وراء الكثير من آرائه وكتابات ، ولعله مفتاح أشياء كثيرة عنده . . فتمجيده للديمقراطية التي تكفل حرية الفرد وأهم ما فيها عنده : ( أن



يشعر كل فرد ، وكل فريق بأنه صاحب رأى فى حكومة بلاده وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية ) فالديمقراطية بلغت الحاشية الحتمية : ( إما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً ) وحشيات هذا الحكم العقادى يفصله تفصيلاً كتابه : ( الحكم المطلق فى القرن العشرين ) .

وحربه الشيوعية إذ يستحق كما يقول فى كتابه ( أفيون الشعب ) أن يسمى مذهباً هداماً كل مذهب يقضى على جهود الإنسانية فى تاريخها القديم والحديث ، ولا سيما الجهود التى بذلها الإنسان للارتفاع بنفسه من الإباحية الحيوانية إلى مرتبة المخلوق الذى يعرف حرية الفكر وحرية الضمير .

ثم ثورته على الشعر العربى التقليدى ومعظمه مدح بل إغراق فى المديح والتبعية بمسخ شخصية الشاعر وبذبيها فى شخص ممدوحه وهدر القيم الفنية فى أثناء هذا لأن الفن عند هؤلاء وسيلة لا غاية . .

وتهديره ( العبقریات ) أى التفرّد أى الامتياز الخاص ومقاييسه الفنية . . بل إن الإسلام نفسه لم يأت تفضيله له إلا باعتباره العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده ، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالملاً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته . . أى أن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية مما فصله فى كتابه ( الإسلام فى القرن العشرين ) ، وهوء المزية الخاصة فى العقيدة الإسلامية ، وهوء المزية التى توحى إلى الإنسان أنه ( كل ) شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين



ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .  
والقرآن كتاب الإسلام من مزاياه الواضحة الجديرة بالاعتبار مزبة  
( التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف ) .  
والتفكير فريضة إسلامية أى الذاتية أى احترام الإنسان .  
وحين يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق يمتنع على المخلوق  
أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله ، أو خوفاً منه ، ولو كان هذا المخلوق  
جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال ) .  
كل هذه الخطوط الكبيرة في شخصية العملاق الذى سافر إلى  
أسوان ، تنبع من حقيقة كبرى تملأ عليه نفسه وهى تقديس الإنسان .  
وتقديسه للذاتية هو الذى جعله يرفض تعريف ابن خلكان لشاعره الأثير  
ابن الرومى ، مع ما فى ظاهر هذا التعريف من مدح بالغ فى رأى كل  
عين إلا عين العقاد . أما النظم العجيب والتولد الغريب والغوص على  
المعاني النادرة واستخراجها من مكانها وإبرازها فى أحسن صورة ،  
واستيفاء المعنى حتى لا يبقى فيه بقية . كل هذا مما يبهى القارىء ، يراه العقاد  
ناقصاً بل الناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه كما يقول . فالغوص  
على المعانى . . إلخ هو لعب فارغ كلعب الحواة المشعوذين إن لم يكن  
صاحبه صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير ، إذ المزية الكبرى  
للشاعر إنما هى الطبيعة الفنية ( هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر  
جزءاً من حياته أبداً كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثروة  
أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر



وفته شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحي من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنه لنفسه يحكى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يحكى فيها ذكر خلجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان ) .

والشعر الجيد يساوى عنده الطبيعة الفنية ( أما المعاني والتوليدات فهي وسائل إلى غاية لا قيمة لها فيما تؤديه وتنتهي إليه ، ويستوى بعد ذلك من أدى إليك سريرة نفسه بتوليد وإغراب ومن أداها إليك بكلام لا إغراب فيه ولا توليد ) .

فالشعر من الشاعر هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه ، وليس لباساً للزينة في مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال في عامة الأيام .

\* \* \*

حتى الصحافة لم تستطع أن تعجنى عليه جنايتها على الأدباء ، فظل أسلوبه له طابعه الذي لا يتغير ، طابع الدراسة والاستقصاء والتمحيص ، وهذا صدى لفرديته واعتزازه بذاته حتى لتغلب شخصيته فلا تظنى عليها شخصية أخرى فردية أو معنوية . . إن الصحافة تغلب بالكمرة وهو معتكف متعال متفرد .

وما يتصل بصفة ( الذاتية ) عند العقاد ، إيمانه بالإنسان . فالعقاد الكاتب السياسى الذى هز الوزارات والعروش كان لا يرى رأى من يبررون القتل السياسى . وكان يأخذ على الشيخ جمال الدين الأفغانى أنه أوعز



بقتل الشاه . روى لى مرة أنه شاهد فيلماً يقضم فيه (Attila) زور عدوه فتقرز من المنظر حتى لم يبق ليلته ، فلما وقعت حادثة دنشواى هزته هزاً عنيفاً تضاءلت معه بشاعة هذا الحادث حتى خيل إليه أن إنجلترا لو تجسست له لقمض زورها كما فعل (Attila) تماماً . لقد كان وقت الحادث فى أسوان حين طلعت عليهم اللواء بهذا العنوان (يا دافع البلاء) والتفوا حول الجريدة أربعة يقرءون فأغشى على أحدهم وانحدرت الباقون فى البكاء . لقد سمعته يقول إن دنشواى أصابته بصدمة لم تتكرر فى حياته . ومع أنها حادثة فردية وهناك من الحوادث القومية ما هو أضخم منها ولكنها ، من الناحية الإنسانية ، كانت تأثيره وتفزعته وكان يتناولها بمنطقه المعهود وعقله الثاقب فيرى أن الاعتزاز بالقوة إلى حد الاستباحة . . . استباحة كل شيء يجرح كرامة الإنسان . وكان العقاد مؤمناً بالإنسان إيماناً يبلغ حد التطرف والمغالاة من حفاظ على الكرامة والشخصية جعله يغضب من التلويح البعيد غضبة إنسان آخر مما يجرح أويسوء .

كان العقاد يتعنى على لودفج فى كتابه عن نابليون ألا يستطرد فى أسلوبه بتلك السهولة وذلك الانسجام ، وأن يعمد إلى التركيز من حين إلى حين (ليستوقف السياق المؤلف ويطلع قراءه على مواضع الغرابة والتفديس فى البطل الممتاز كما أطلعهم على شئونه التى تجري فى الحياة مجرى العادة والعرف المشاع) (١) .

وحجته فى هذا أن (العرف المؤلف لا يستفز القدوة ولا ينصف

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٥ .



المعظمة ولا يبعث الشوق إلى المعرفة . فإبراز جوانب الغرابة والتنويه بها هو الأساس في تراجم الألفاظ الذين ما كانوا أفضاءً إلا لأنهم غرباء يختلفون عن سواد الناس (١) .

الذاتية والشخصية الإنسانية هي محور تقديره وتفكيره . من أصالة ذاته هو وقوة شخصيته هو .

والعقاد أحب صفاته إليه : الشاعر . ولكل شاعر شيطان يسكن وادي عبقر - هكذا يقول العرب - وقد ترجم العقاد للشيطان . وحتى هذا يرى الأستاذ عبد الرحمن صدقي أن ( الشيطان الذي أحياء العقاد ، وأماته ، وصور لنا حياته هذا التصوير البديع ، إنما هو شيطان العقاد وشعره . . . وهذه النفس الطامحة التي لا حد لآمالها . . هذه النفس التي لا يرضيها شيء ولا تستريح ولا تطمئن إلى شيء ولا ترضى إلا لتسخط ولا تستقر إلا لتتحرك حركة لا حد لها ، حتى إذا خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود ، فإن آثارها لا تزال قائمة تعمل في النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وإن كان الشيطان قد استحال إلى رماد في القبر ، هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن . والذي نلاحظه في كل أثر من آثار العقاد أو الشعراء النابيين أمثال العقاد ) .

لقد كتب العقاد عن « الذاتية الإنسانية » في مجال تفرد لها بما فيه

---

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٦ .



هو من التفرد والامتياز وكأنه يرى نفسه من خلالها أو يرى نفسه من خلال .

\* \* \*

وهو بكتابته عن شخصية من الشخصيات فذلك علامة تقدير لأنها علامة طريق .

فابن رشد موضوع للكتابة بمكانته في تاريخ الفكر الإنساني إذ هو شارح المعلم الأول أرسطو وأكبر الفلاسفة الشراح أثراً في الغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين .

وهو موضوع للكتابة بمشاركاته في الفكر والفلسفة والطب والفقه وما يتخللها من معارف ، موزعة كالمعلم الطبيعي وما إليه في زمانه .

وهو موضوع للكتابة بما رزقه من أنصار ومعجبين من أصحاب الأديان الثلاثة ممن لم يرزق مثله فيلسوف قبله ولا بعده . وهو هو الذي كان له مصادرون ومضطهدون من أتباع كل دين ، وخدام كل سلطان . ولو أن المصادرين عملوا قصداً وعمداً على نشر آرائه وشروحه لفاتهم بعض النجاح وأخطأهم بعض التدبير كما يقول العقاد .

وابن رشد موضوع للكتابة بما رزق من بعد الأثر واتساع مداه ، وبما رزقه من قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه . وبين هذين فروق يفصلها العقاد ( فربما كان بعد الأثر واتساع مداه مسألة مسافات وأبعاد ، ولكن قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه شيء آخر يقاس بدوافع الحياة والحركة النفسية ولا يقاس بالسنين والأمكنة . هو شيء في آفاق النفوس والعقول ، وليس في آفاق الفضاء أو صفحات



الأوراق ، وقد رزق ابن رشد من هذا الحظ النادر أوفى نصيب ، فما ظهرت فلسفته في مكان إلا انتصب فيه ميدان كفاح ، وكان الكفاح عنيفاً والاستبسال فيه من الجانبين على غاية في مجال الرأي والعقيدة .

ففي أوروبا لم تنقطع المناقشة في الفلسفة الرشدية من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، ثم كان لها استئناف في القرن التاسع عشر على يد المؤرخ الباحث أرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢ م) صاحب كتاب حياة المسيح ، وكتاب ابن رشد والرشدية وغيرهما من كتب البحث والتاريخ .

وشملت المعركة معسكر اللاهوت المسيحي ، ومعسكر اللاهوت الإسرائيلي في وقت واحد ، حيثيات للشخصية كحيثيات الحكم سواء بسواء .

وكتب العقاد عن محمد عبده ، إذ رآه ( ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة إنسانية ، يخلص لنا منها - بعد تمحيص الجوهر - عن نفايات الأوشاب والأنحلاط - أشرف ما تتحلى به نفس الإنسان ، في العالم الخالد الذي يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس ) .

كتب عنه إذ رآه ( صورة يلتفت إليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل ، فيجدون أمام أعينهم - محمد عبده - إماماً هو أولى أئمة العصر ، أن يأتهم به المقتدى فيما اضطلع من أمانة العقيدة وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الإخلاص للخلق والخالق ، في كل ما يتولاه الإنسان - الجدير باسم الإنسان - من نية وعمل ، ومن سر وعلانية ) (١) .

---

(١) كتاب محمد عبده .



ومن شخصيات العقاد خوالد ، في أعمالها من القيمة الباقية ما لا ينقضي بانقضاء فترة من فترات الثقافة الإنسانية أو الثقافة الأوربية مثل فرنسيس باكون .

واستحق ابن الرومي منه ما كتبه عنه بمزية ( التفرّد ) بين شعراء عصره . فهو بينهم الشاعر الذي امتزج فنه بحياته أو انعكست حياته في شعره وتلك هي الطبيعة الفنية التي لا غنى عنها للشاعر الحق ، والتي لا يكون الشاعر شاعراً إلا بها ، أو بنصيب منها . وهي مزية يستحق ابن الرومي من أجلها عند العقاد أن يكتب فيه كتاب مع أن حياته بأيامها المجردة ( لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال ) .

ولكن هو انه على الناس لم يقعد به عند العقاد فعده عبقرياً نادراً بما دخر به شعره من سمات حياته فكان ( شاعراً في جميع حياته حياً في جميع شعره ، وإن الشعر كان لأناس غيره ، كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له ، جسماً لا تكون بغيره حياة ) (٢)

إن العقاد يعجبه التميز أمانة من أمارات الشخصية ولو كان هذا التميز في أنحص علائق الإنسان . وأنا هنا ألتح جميل بثينة الذي كتب عنه العقاد باعتباره ( أستاذ المدرسة الغزلية التي تجري على طريقته في النسيب والتشبيب ، وهي مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحبة واحدة



ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه في غيرها، وقلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسب) .

بهذا استحق جميل شاعراً أن يكتب عنه العقاد .

قد تقول وما قيمة الغزل ليستحق صاحبه الكتابة والتاريخ ؟ وأقول قيمته أن الحب إذا صدق كما صدق من جميل له شأن كبير في الحياة الإنسانية حتى يعزو إليه رجال الاجتماع غير قليل من ألوان التطور في حياة الإنسان . وما جميل صاحب الترجمة ، إلا ( الإنسان حيث كان ، واحد في كل زمان ومكان ) .

ثم تبقى لجميل سمة أخرى هي في الحقيقة سمة للعصر كله الذي عاش فيه فكان هو بشعره ممثلاً لها ودليلاً عليها تلك السمة هي شيوع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل في بيئة الحجاز أو بيئة جميل حتى لا ينجو منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجلد والظموح كمصعب بن الزبير صاحب قصتي أم منظور والشعبي .

وهنا تكون الترجمة لجميل ، « بعض تاريخ وصورة عصر » .

\* \* \*

والعقاد يقسم التوابغ من أصحاب الرسائل والترجمات إلى فئتين :  
( فئة تظهر في أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان . وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهي التي تظهر لتحقيق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يدلل صعايبها ويهدي إلى طريقها ) .



• آية العبقرية عند العقاد سبق الرؤية فضلاً عن وضوحها فآية العبقرية أن ( تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفوياً ويحسب في الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ومصلحة من مصالح الواقع والعيان ) (١) . وأجدر عبقرية عنده بإعجاب وتشريف معاً عبقرية ( يلتقي فيها سداد الفكر بشجاعة الضمير ) (٢) .

وهذا يفسر قول العقاد بعبقرية الصديق وعمر والإمام فإنه فيما أحسب يريد بها في هذا المقام بالذات ، الإلهام الرباني ووضوح الرؤية والتوقعات في الرأي ، والفتنة الواجبة وبلوغ هذا كله مجتمعاً ومنفرداً غاية تأثير الإعجاب عند من خبروها بالتجربة أو السماع . ولا يتجاوز الأمر هذا إلى ضلالة العقول، أو فتوحات العلم، لأن عصرهم كانت حاجته أشد إلى نور الهدى، وخلق النفوس، وإشاعة قيم جديدة. وقد نجحوا في هذا نجاحاً تحويلياً نقل قومهم من حال إلى حال يستحق من أجله أن يسمى ( عبقرية ) ، لا سيما وأن نجاحهم له من المنكرين والجاحدين كفاء ما له من مؤيدين . وقبل هذا كان محمد عبقرياً بالدعابة التي تركى السامع حين لا يخفى عليه أو عليها بواطن نفسه أو كوامن طباعه .

فقد كان عمرو بن العاص مغرماً بالمال جشعاً له. وكان النبي عليه السلام ( أدرى الناس بهذه الصفة في عمرو بن العاص قبل أن يعرفه

(١) الكواكبي ص ١٨١ .

(٢) الكواكبي ص ١٨٣ .



المسلمون أو المشركون بطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعي وتفتق المطامع والآمال ، فولاه الإمارة في غزوة ذات السلاسل . وقال له وهو يعرضها عليه في دماثة وفي حصافة معاً :

« إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة » .

فأجابه عمرو ، وهويشفق أن يظن النبي بإسلامه الظنون :

« يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة في الإسلام » .

فهون عليه النبي ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهويقول له :

— « يا عمرو ، نعماً بالمال الصالح للمرء الصالح » (١) .

ولم يحتج العقاد إلى إعلان العبقرية مع ابن سينا الشيخ الرئيس الطيب الأديب الفيلسوف الحكيم العالم . . العالم بالرياضيات والطبيعات والموسيقى أيضاً (لأنه كان طيب العصر غير مدافع في الشرق كله ، ثم انتقلت تواليقه إلى الغرب فأصبح طيب العالم بأسره زهاء أربعة قرون . ولم يشتهر أحد بهذه الصناعة مثل تلك الشهرة العالمية ، بغير استثناء أحد ، من أيام بقراط وجالينوس ) .

• • •

أما من حيث المنهج — أو ، المناهج ، في الحقيقة فقد نهج الأستاذ

---

(١) عمرو ، ص ٢٦ - ٢٧ .



العقاد مناهج متباينة وفقاً لما تقتضيه طبيعة كل شخصية ، وطبيعة دورها ، وأثره ، وامتداد هذا الأثر في الزمان والمكان .

ومن هذا أن يضع الأستاذ العقاد الصورة في إطار عصرها فحين يتكلم عن ابن رشد يرسم أولاً صورة للحركة العلمية في نشأته ونضوجه ، ثم الحركة السياسية وتأثيرها في الثقافة ، ثم الحركة الاجتماعية ، ثم أسرته . وبعد هذه الصور أو هذه الخلفية الواسعة للصورة الرئيسية يتكلم عن ابن رشد : آثاره وفلسفته ، وأثر الفلسفة الرشدية ثم قوة هذا الأثر . ومع ابن سينا استهل يتحدث عن الدولة والفلسفة . . . الدولة السامانية بخراسان ثم عن موقف المتقدمين عليه من مشكلات الفلسفة ( والمتقدمين عليه ) هؤلاء يعنى بهم العقاد ( أولئك الذين سبقوا ابن سينا إلى مثل موضوعاته وكان لهم أثر في تفكيره واعتقاده ) .

ثم تكلم العقاد عن حلول الفلسفة وأشهر أصحاب هذه الحلول فتكلم عن أفلاطون وأرسطو وأفلاطون ، والفارابي أو الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعاً من التلمذة .

أولئك أسلاف ابن سينا الفكريون . وبين مذهبه وبين كل واحد منهم مقارنة ملحوظة في بعض الأمور ( فهو يقارب الفارابي في التوقعات الدينية ويقارب فرغوريوس والأفروديسي في الرموز الصوفية ، ويقارب أرسطو في التفكير المنطقي ، ويقارب أفلاطون في النزعة الفنية ) (١) .



ثم يمضى العقاد يفصل هذا تفصيلاً يقف وراءه علمه الموسوعى .  
ولكن المقاربة بين مذهب ابن سينا وبين أسلافه لا تدل ( على أنه  
كان متقيداً بمذهب أستاذ أو أكثر من أستاذ من هؤلاء الأسلاف الفكريين  
والروحيين ؛ لأنه كان يعارضهم كما كان يجارهم ويوافقهم . وكانت  
أكثر معارضاته لهم فيما بينهم وبين الدين من خلاف ، فلم يكن للمذهب  
الفلسفى من حدود غير العقيدة الدينية وهى صحيحة عنده فى جوهرها  
الأصيل لا خلاف بينها وبين القضايا العقلية فى غير الظواهر والعروض (١) .  
ثم خلص العقاد بعد هذا للحلول التى ارتآها ابن سينا لمشكلات  
الفلسفة الإلهية وهى العالم ، والنفس ، والخير والشر ، والحرية الإنسانية .  
ثم تكلم العقاد عن ( عقيدة الفيلسوف ) . .

تكلم عن ابن سينا الطبيب .

وابن سينا الأديب . . .

وابن سينا ذى الشخصية الجامعة .

إذن، العظم للبيئة والوراثة دخل فيه وإن لم يكن كل شيء أو أكبر

شيء .

بل إن العظمة أو العبقرية فى مفهوم العقاد هى شخصية فذة متميزة  
بالتفرد القوى . . شخصية فعالة بذاتها وقدراتها فى عصرها وغالباً تمتد قوة  
أثرها إلى عصور قريبة أو بعيدة . . . تغيب هى ويبقى الأثر .

وابن سينا بعد هذا عند العقاد ( موسوعة حية وعبقرية ملهمة وعقل



فعال لأنه فعل في مجال الثقافة الإنسانية قصارى ما تفعله العقول (١) ..  
أما الفارابي فقد قدم بين يدي الموضوع بمقدمة عن تيارات الفكر  
العربي واتجاهاته من العصر الجاهلي إلى منتصف القرن الرابع الهجري وهو  
الوقت الذي وجد فيه الفارابي .

ثم عرف به ونسبه ونسبته وبعدها اتجه مباشرة إلى مؤلفات الفارابي  
ليخصها بتفصيل . فالعقاد غير ملتزم خطأ جامداً لا يتحرك بل إنه يكيف  
الشخصية وفق ملاسأها الخاصة حتى لتحس معها ومعها أنه، كلاً، له  
طابعه الخاص كشأنه في الحياة .

وفي كتاب التعريف بشكسبير تناول :

عصر شكسبير - الشعر والمسرح - أسرة شكسبير . . .

الرجل - الفنان - المؤلف - الشاعر - الخصائص والمزايا - مصادر  
الروايات - نسبة الروايات - تراث عالمي .

وأحياناً يورخ العقاد بين يدي الترجمة للمدينة مربي الشخصية ومهبط  
رأسها كما صنع مع عبد الرحمن الكواكبي .

والعقاد بين يدي الترجمة كثيراً ما يقدم دراسة للعصر الذي عاشت  
فيه الشخصية أو ما قبله، إيماناً منه بدور العصر والبيئة والعوامل المساعدة  
في فن تكوين الشخصية الإنسانية جنباً إلى جنب مع المواهب الخاصة  
والخصائص الذاتية .

بل يندر جداً عنده : ( أن يشهر رجل أو يرتقى سلم المناصب الرفيعة

(١) بنيامين فرانكلين . ص ١٥ .



ثم لا يكون للعصر أثر في أخلاقه إن لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لأخلاق عصره ، لأن الشهرة وارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، وقلما يتأني هذا التجاوب بغير مماثلة أو مقابلة بين الشئيين المتجاوبين<sup>(١)</sup> . وهو يرى أن (كل رسالة في عالم الفكر أو الروح هي رسالة تؤكد وتقرير أو رسالة توسيع وتحويل ، ويندرجداً أن نرى في عالم الفكر والروح رسالة ابتداء وابتداع لم يسبق لها تمهيد طويل) .

ويزيد هذه الحقيقة توضيحاً فيقول : (إن الرسائل الفكرية أو الروحية تسبقها رسالات من قبلها تتناول أطرافها ومبادئها وتبهي الأذهان لانتشارها والتوسع فيها . فكل رسالة كبيرة هي بمثابة كتاب من أجزاء متعددة تترقى من البداية إلى النهاية جزءاً بعد جزء ودرجة بعد درجة. ولم يحدث قط أن رسالة فكرية أو روحية تم الإنسانية ولدت فجأة، أو خلقت خلقاً بغير سابقة تمهد لها الطريق وتبهي لها الأذهان<sup>(٢)</sup> .

لا بد من تمهيد وارتداد واطراد :

وإذا كانت الشخصية متعددة الجوانب غنية باللمحات والقدرات فإنه يتناولها قيمة كبرى بطرد القول فيها جوهرياً لا تفسده التفاصيل. فهو مع بنيامين فرانكلين يعطى صوراً متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية دون أن يحفل فيها بسجل الأرقام أو بإحصاء الأيام. ولم يكتبها ليبدأ فيها

(١) برناردشو ص ٧ .

(٢) يكون ص ٥٤ .



بسنة الولادة ويختتمها بسنة الوفاة ويمضي فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، ولكنه عمد إلى عرضها (لحظة بعد لحظة تم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر إليها ، وقد يتابعها القارئ فلا يفوته من ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام وإنما يلم بها حيث يعبرها في طريقه ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء، أو يبقياها على حد سواء) (١).

والعقاد في تراجمه الأدبية يحتم دراسة العصر الذي نشأ فيه الكاتب لأن (الكاتب قد يسبق عصره في أشياء ، وقد يتخلف عنه في أشياء ، وقد يخالفه في أشياء ، ولكنه لا يفصل عنه كل الانفصال في جميع الأشياء . فلا بد بين الكاتب والعصر الذي ينشأ فيه، من صلة، نعرفها لتمام التعريف به والاستدلال على مصادر أدبه وقواعد تفكيره . .) (٢).

تلك الصلة يسميها العقاد (البطانة الثقافية) . .

إنه ينظر بعين الاعتبار إلى فعالية البيئة الخاصة للفنان والبيئة العامة ، فكما قال في حديثه عن برناردشو (نشأة الكاتب في بلده، ونشأته في أسرته، ونشأته من أبويه ، ونشأته في جيله السياسي ، ونشأته في جيله الثقافي - كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر حياته أو عنصراً من عناصر استعداده وعمله في حياته الفنية والثقافية) .

ويتعاطف العقاد مع الشخصية التي يترجم لها إذا لاح منها وقاء للإنسانية الإنسان . في أي مكان. فإذا كانت مصر أمل هذا الوفاء وهايته

(١) بنيامين فرانكلين ص ١٥ .

(٢) برناردشو ص ٧ .



أحس العقاد الأمر كأنه دينه الخاص الذى يؤدى فيه واجب الشكر والجزاء . مثال هذا موقفه من ( شو ) رداً على موقف شو الكريم من الأمة المصرية بعد حادث دنشواى .

ويراها كلمة واجبة فى كل ترجمة لبرناردشو تكتب فى مصر باللغة العربية وإن كان ( التعريف بهذه الناحية الإنسانية لازم فيما يكتب عن برناردشو حيثما كان كاتبوه )<sup>(١)</sup> .

• • •

على أن العقاد أوضح بنفسه ، فى كتابه عن عثمان بن عفان ، طريقته فى الترجمة وغايته منها وهما يكادان يكونان شيئاً واحداً هو ( التعريف بالنفس الإنسانية فى حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من أحوال النبيل والأريحية ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجأوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنسانى ، ونخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال )<sup>(٢)</sup> .

وشرط العظمة عند العقاد فيمن ترجم لهم : ( همة الجبابرة من رجال العمل ، وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة ) .  
يظاهر هذا ويقف وراءه خلق مكين ( يقاوم كل إغراء ولا يتخاذل أمام الوعيد ) .

وهو يرى فى عظمة العظيم أو عبقرية العبقرى صورة من صور العظمة الإنسانية . وهى بهذا وحده تستحق الوقوف عندها والكتابة عنها فضلاً عن

( ١ ) أنظر ص ١٦ .

( ٢ ) ذو النورين ص ٧ .



دالاتها في تفسير أطوار الأمم وأسرار التاريخ .  
 بهذا الاعتبار كتب العقاد ما كتب غير ملق بالآ إلى غيره من اعتبارات  
 يفسر هذا كتابته عن غاندى وعن محمد على جناح وبين الهند وباكستان  
 ما بينهما في تاريخ الإنسان ، لا رعاية للدولة الهند أو باكستان ولا لمرجع  
 من مراجع السياسة ، ففى كتاب غاندى ما لا يوافق الهند ولا يوافق الباكستان .

\* \* \*

والأستاذ العقاد في كتابته عن العبقريات أو العباقرة يجمع بين  
 فلسفتين متباينتين في تدوين التاريخ : هل البطل يصنع التاريخ أم  
 التاريخ هو الذى يصنع البطل ؟

أو كما يتساءل العقاد في كتابه ( محمد على جناح ) (١) هل للبطولة  
 شأن في حياة الأقسام أو هى في حياة الأقسام صفر على اليسار ؟ هل المادة  
 وحدها هى الترجمان المفسر للتاريخ ، أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد  
 تهزم تفسير المادة وتنقضه وتتحداه ؟

الأستاذ العقاد يرى أن العبقري الفنان يولد ( كالغلة التى تنبت على  
 غير قصد في فرع من فروع شجرة الحياة ، ثم تصبح الغلة مثلاً يحتذى  
 وقالاً يصب فيه الأنداد والنظراء .

والبطل والعبقري يتشابهان في التفدية بكل شيء في سبيل الغاية التى  
 يقصدا إليها أو ينساقان إليها على غير قصد منهما ، والناس ينساقون  
 معهما ولو أهلكتهم مطامع البطولة ، ومطالب العبقرية (٢) .

(٢) برناردشو ص ١٢٢ .

(١) ص ١٧٨ .



وأرى أن البطل بعد الموهبة ، من صنع بيئته واللمحظة المناسبة .

\* \* \*

ويُفرق العقاد بين العبقرى والبطل بقدر ما بينهما من أفضلية العبقرى ( فإن البطل قد ينحرف عن الجادة الكبرى مرضاة لكبريائه وسلطانه ، ولا يكثرث العبقرى لجأه أو سلطان إذا حادا به عن غايته ، وهى خلق الأمثلة الجديدة والقيم البديعة فى أحلام الناس ، ثم فى واقع الحياة ) (١) .  
وحيث يعتمد كاتب ترجمة على آراء الناس فى الشخص موضوع حديثه فإن العقاد يعول أكثر على أقواله هو فى الناس ( وإن الناس قد يغبنونه بعض حقه وقد يعطونه فوق حقه ، وقد يختلفون - بل لا بد أن يختلفوا - فى النظر إليه .

أما أقواله فى الناس فلن نظلم شيئاً فى الإبانة عن مبلغ فهمه وطوبى نفسه وطبيعة خلقه ومقياسه الذى يقيس به الرجال والأعمال من وحى تفكيره وشعوره وخلجات ضميره ) (٢) .

وحيث تكون العبقرية عبقرية فنان، فإن العقاد يرى أعمال الفن ذات رسالة فى تاريخ الفكر الإنسانى تتحقق بإلغاء تلك الفروق والمفارقات - وفى الذوق والتذوق - وإدماجها الثابت وتعبير الزمن من فوقها ومن ورائها فى حياة واحدة باقية هى حياة الإنسان الخالدة فى مرآة العبقرية الخالدة . وهى تؤدى الأمانة الكبرى فى طريقها الثابت لا تعتمد على سطوة تحميتها، ولا تحفل من سطوة تنازعها. وهذه هى أمانة الفكر الإنسانى من قديم

(٢) ص ١٢٦ .

(١) برناردشو ص ١٢٤ .



الزمن سبقت دعوة الداعين وعظائم الواعظين، وعرفت الإنسان (إنساناً) واحداً قبل أن يلفظ بها رسل الدولة وسفاسرة السلطان مخلصين وغير مخلصين .

واستدل على هذا بعالمية شكسبير وإنسانية عبقريته ، فرواياته ( تنقل إلى اللغة العربية تامة محققة في عهد استقلال ولم تنقل على هذا المثال خلال سبعين سنة في عهد حماية أو احتلال .

سطوة الدولة لم تكن لها يد بالأمس في « ترويج » شكسبير بين الفرنسيين والألمان والروس ، وسطوة الدولة لم تروجه بين المصريين وهم يعملون بأعينها ولا يفلتون من قبضة يدها .

أخذته الأمة حصّة من التراث الإنساني لا تنزل عنها ، ولم يفرض عليها ضريبة تدين بها لمن يفلبها ويتحكم فيها .

وتلك آية « الفكر » الإنساني في الآداب العالمية كل أمة تسأل عن حصتها منه ، لأنه تراث مدخر لجميع بني الإنسان (١) .

يعرف الدكتور مصطفى سويّف العبقرى الفنان بأنه إنسان (تنظم علاقته بمجتمعه الخاص في صورة تعارض واختلاف يصحبه الشعور بالحاجة إلى إنهاء هذا الخلاف وإقناع الآخرين بوجهة نظره .

فإذا صحب هذا الخلاف وما ينجم عنه من توترات وانفعالات عميقة..إذا صحب ذلك استعدادات خاصة ومجموعة من القيم تبرز

(١) التعريف بشكسبير ص ٢٢٥ .



للعبقري الناشئ نماذج معينة من الأشخاص يتعلق بهم ، انطلق هذا الناشئ<sup>١</sup> .  
يطلع على أعمالهم ويتمرن على الإنتاج في الاتجاه الذي أنتجوا فيه ، محاولاً  
أن يقلدهم أحياناً وأن يتحرر من نماذجهم أحياناً أخرى .

حصيلة هذا أن العبقرية تفرد يؤيد استحالة التساوى بين الناس  
في المواهب ، بل استحالة إنقاص الفارق بينهم فيها . فالعبقرية كما يقول  
« سدي هولك » في كتابه « البطل في التاريخ » ليست حاصل مواهب  
مركبة ، وإلا فكيف فيلق عسكري يوازي ويعادل نابليون ؟ وكم من علماء  
الطبيعة العاديين يمكنهم أن يقوموا بالعمل الذي قام به انيشتين ؟

إن أسئلة من هذا النوع لا تطرح للإجابة عنها إنما لتقرب إلى  
الأذهان حقيقة أن العبقرية شيء فريد (١) .

إن العبقري ابن موهبته أولاً وإن كانت الظروف المساعدة تسعد  
بالتوفيق . ( إن بعض فترات التاريخ هي بدون شك أكثر قابلية للتفاعل  
مع العبقرية ، أى أكثر تنشيطاً لها وأكثر تحسناً لها من غيرها من الفترات  
فهى تمكن العباقرة كما تمكن العاديين من النجاح والفلاح وبالتالي  
لا يمكن أن تعتبر في تمخضها عن العباقرة بأنها المصدر الخلاق للعبقریات  
بأكثر مما يمكن اعتبار رقعة خصبة من الأرض تنبت عليها الأزهار النادرة  
والأعشاب الطفيلية العادية المصدر الخلاق لتلك الأزهار ) (٢) .

(١) كتاب العبقرية في الفن ص ٣٧ .

(٢) كتاب العبقرية في الفن ص ٣٧ .



إن العبقري ابن موهبته الخاصة أولاً وأصدق ما يكون هذا على أصحاب الفنون ومبدعيها ( فإن للتقاليد الفكرية والحاجة الاجتماعية وتنظيم المجتمع العلمي تأثيراً في مكشفات العلماء أعظم من تأثيرها على إبداعات وابتكارات الفنانين ورجال الأدب . فإن الإبداع الجديد في شكله وأسلوبه المميزين له عن غيره في الميادين الأدبية والفنية هو بديهي عمل قام به فرد . ومن السخف ، برغم كل اعتماد ذلك الفرد على حضارته واتكاله على ثقافته ، الاعتقاد بأن العالم خلق بأن ينعم بعمل ذلك الفرد الفنان عن طريق شخص آخر لو أن ذلك الفرد الفنان لم يولد . فليس باستطاعتنا أن نتصور صورة مستين مدوناً « الموناليزا » بدون الرسام روفائيل وسفونيات بيتوفن . أما في الميدان العلمي من جهة أخرى فإنه من المحتمل جداً أن يتم الوصول إلى معظم اختراعات أى عالم معين بواسطة أفراد آخرين ، عاملين في الميدان نفسه (١) .

وكتاب العقاد ساعات بين الكتب يكشف عن إعجابه الشديد ببلوتارك كما كان معجباً بلودفيج وهما من أصحاب التعاطف مع العظمة ونفحها بالإنسانيات التي تقربها إلى القلب بما فيها من ملامح إنسانية هي خير ألف مرة من التطويب والتقديس الذي يفصمها من الناس ويرفعها ولكن إلى مراتب الغرابة والإعجاز المعزول .

وإعجاب العقاد ببلوتارك ولودفيج يعكس بطريق غير مباشر رأيه الشخصي

---

(١) كتاب ( البطل في التاريخ ) تأليف سدي هوك ، ترجمة مروان الجابري ، مراجعة د . أنيس فريجة .



في كتابة التراجم، فما كان ليعجبه هذا المنحى إن لم يكن فيه من رأيه مشابه ومن اتجاهه موافقات .

ومنهج البحث عن الفتات الإنساني انتهجه « اندريه موروا » و « ستيفان زفايخ » و « لودفيج »، كما أن منهج تفسير الأحداث تفسيراً عقلياً وكشف القوانين المتحكممة في سير الحوادث ومحاولة إيجاد ترابط بينها أخذ به المفكر الألماني ( اشبنجلر ) ، ومن المعاصرين الأستاذان « أرنولد توينبي » و « بيتريم سوركين »، غير أن العقاد اختلف عنهم في عدم التزام الخط التاريخي حين زاد عليهم التفسير النفسي والخلقى . ( والوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لا يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد ) .

الأستاذ العقاد يفسر التصرفات على طريقة التعريف المحدد وهو يربحك بإعطائك النتيجة والرد على أسئلتك الحائرة وكشف الغموض الذى يلف عادة شخصية العظيم .

هذا حين يعرض أندريه موروا التصرفات في شريط ويدع لك التفسير كما يدع لك تلوين فكره بنفسك . اندريه موروا يشوقك ويشدك إليه حين يملك تلهث وراءه لمعرفة النتائج والنهايات .

\* \* \*

وللأستاذ عبد الفتاح الديدى رأى في تفسير ميل الأستاذ العقاد إلى كتابة التراجم والسير بعامة<sup>(١)</sup> وهو رأى أملاه حب وحماسه الشخصى

(١) عبقرية العقاد ص ٣١ .



للعملاق، فجعله في مقام الدفاع عنه أمام أصحاب الشهادات ممن لم يعطوا عطاءه للعلم والأدب، يفسر اتجاه العقاد إلى التأليف عن الشخصيات وعمل ترجمات حياة للشعراء والأنبياء وكبار المفكرين، برغبة التعويض وكأن العقاد تنبه إلى شيء هام جداً في حياته (وهو أنه هو نفسه الذي لاشهادات له يقوم بمنح الشهادات إلى كبار العباقرة والمفكرين والقواد والشخصيات، لقد كانت ترجمته وكتابته لسيرة من السير نوعاً من الشهادة للشخصية التي يكتب عنها. واختص باكتشاف الجوانب الرائعة في كل شخصية من هذه الشخصيات حتى أحس العقاد بأنه يستعرض ملامح من يترجم له على نحو يشبه عبقريته في ناحية من النواحي ولا يبرز فيها أحد) (١).

واستهوت الأستاذ الديدي، الفكرة على ما يبدو فاسترسل يقول :  
(كانت كتب العبقریات ودراساته عن ابن الرومي وجوته وشكسبير وبرناردشو ترفعه إلى مستوى من يقدم إلى هؤلاء جميعاً الشهادات التي تميزهم بالعبقرية والتبوغ والامتياز، ووجد للذة كبيرة في كتابة التراجم والسير. لهذا كان حماسه في إثبات دعواه التي يفتتح بها ترجمته لكل هؤلاء نوعاً من استعراض قدرته وقواه العلمية في إثبات كفايته هو نفسه في تقدير النابهين والأذكياء. وكأنما يقدم في كل كتاب دعوى تشبه دعوى الأكاديميين في بحوثهم الجامعية للدكتوراه. وكأنما يفتقر هؤلاء العباقرة إلى شهادته التي لولاها لظلوا مضموطي الحق مجهولين من الناس. فدراساته هي شهادات لمن تلزمه، ورأيه في شخص ما، يكاد يكون من الاتزان والدقة

(١) المرجع السابق ص ٣١.



بحيث لا يصبح له أن يمنح به نحو الهوى في معاملة معاصرة (١).  
وعندى أن العقاد كانت ثقته في نفسه وعدم مبالاته في الوقت نفسه  
برأى الآخرين فيه ، مدحوا أم قدحوا ، لا تنطق معها الرغبة الحادة  
في إثبات تفوقه وهو لا يحتاج إلى دليل . ولا أحسب أنه كان يفكر في  
الشهادات وأصحابها ويشغل نفسه بهذا إلى الدرجة التي يكرس نفسه  
وجهدته في كتابة تراجم وسير لمجرد الإحساس بإعطاء شهادات لأصحابها  
الأعلام .

لم كل هذا ؟ أليس الأسهل لو حاكت بصدده يوماً هذه الرغبة  
أو هذا الشعور أن يقبل منصب عمادة كلية الآداب التي عرضها عليه  
محمد محمود باشا ورفضها ؟

إن هذا المنصب بالذات خليف بأن يشبع رغبة الاستعلاء على الشهادات  
ورغبة إعطائها لمحبيها والراغبين فيها والمستعزين بها .

وقد يفسر برغبة التحدي والاستعلاء على حملة الشهادات ، الكتابة  
عن أصول البحث العلمي عند أكبر دارسي المنهج في العصر الحديث  
وهو فرنسيس بيكون أستاذ المناهج والأصول الفعلية للأبحاث والدراسات ،  
ولكن الأنبياء ، يجهلهم الخاص وواقع عصرهم المعين ليسوا بحاجة إلى  
شهادات أو تركية ، بل إن خيرهم ( الأمي ) الذي دانت به الطمأنينة .

إن الكتابة عن الأنبياء والشخصيات الدينية تحتاج إلى فيض فياض  
من العاطفة قبل أي سبب آخر .

( ١ ) كتاب ( عبقرية العقاد ) .



ثم إن الكتاب الباقي إن صح أن يكون شهادة ، فهو شهادة لصاحبه أولاً بما فيه من دلالات القدرة .

قد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء مشاركاته المتنوعة الخصبة العميقة ، في موضوعات كثيرة تنتمى إلى العلم مرة وإلى الفن تارة مما يحسب التخصص في واحد فقط منها ، مزية لصاحبه كأنما يقول ( وفي الناس واحد كالألف ) . ومن هذا صولات العقاد وجولاته في ميادين أصول الفلسفة ومذاهبها وفي تحليل جزئياتها الخاصة بالسببية وعناصر الوجود وطبيعة الحياة ونظريات نيتشة وشوبنهاور وكانت وداروين وآراء استيوارت مل ، وهيوم .

لقد كتب العقاد عن أشخاص بينهم من الاختلاف ما بين عمر ابن الخطاب وعمر بن أبي ربيعة كما أشرت ، إذن ملاك الأمر قدرات فيه وهبها يجلوها بقلم موهوب ولا يعنيه بعد هذا أن يعطى بها شهادات - أو يأخذ عليها شهادات .

ثم هو كما يقول الأستاذ الديدى - وهنا أتفق معه - صاحب فكرة تبدو من وراء الكلام الذى يورده على لسان غيره . فهو كاتب ذواته ، وكثيراً ما يسقط هذا الاتجاه على الذين يترجم لهم حتى لتحسبه هو نفسه المتكلم وليسوا هم . وفي أغلب الأحوال كان ينطق في الكلام عن تجاربه الشخصية إذا ما تشابهت مواقفه ومناسباته الجزئية مع ظروف الإنسان الذى يترجم له . وهنا تقترب الترجمة من الفن القصصى الذى كثيراً ما يكون البطل فيه صورة من المؤلف .

وعندى أن كتابة العقاد للتراجم والسير إنما هي لون من تجميل الحياة

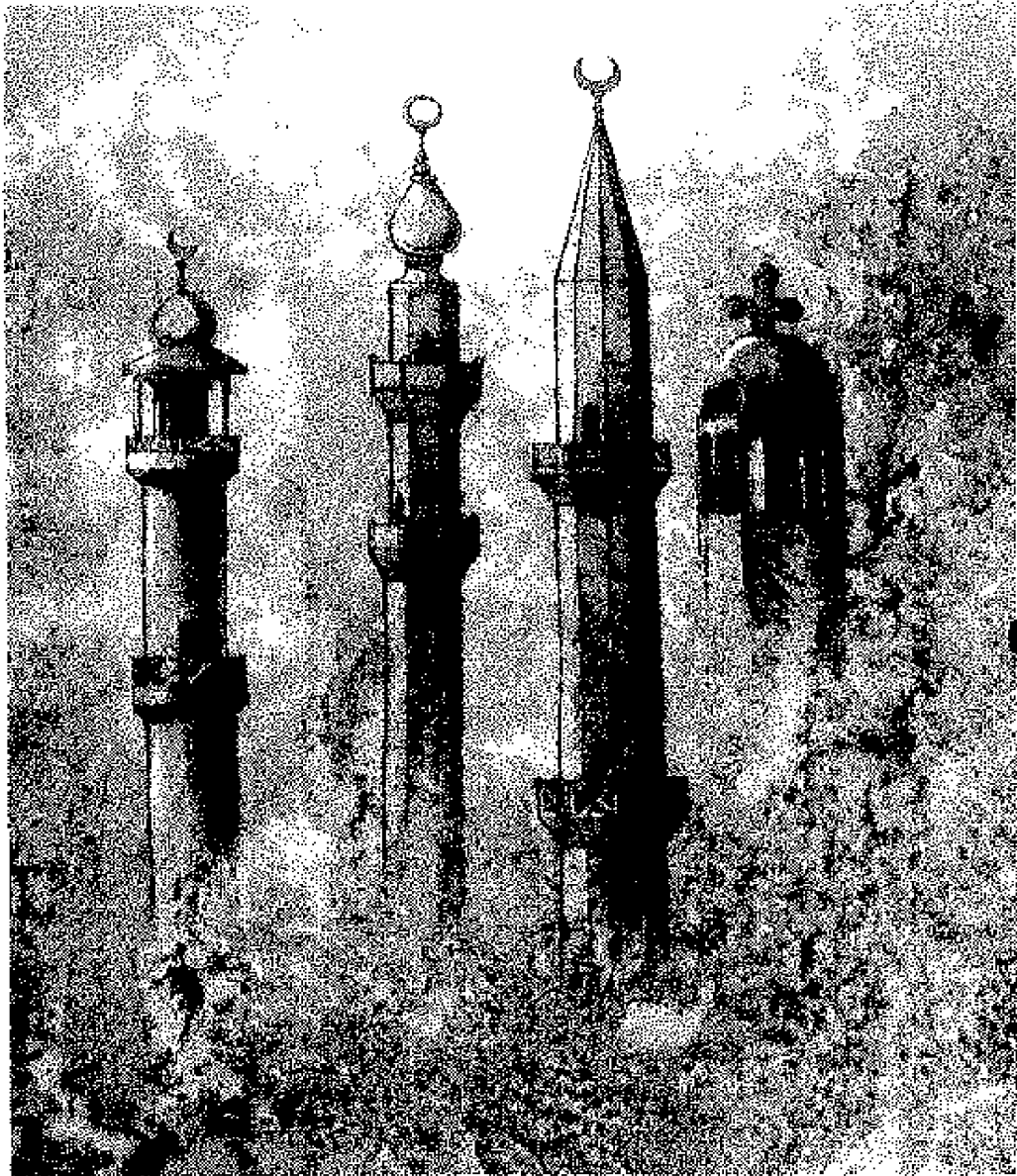


بالفن وبالصدق معاً يخلص إليها عن طريق التراجم كما يخلص إليها فنان آخر عن طريق النحت أو التصوير أو الغناء . ( فكل حياة - كما يقول - خلقت من الجمال الفنى ومن الصورة المثالية التى يسبح عليها ذلك الجمال هى حياة فائرة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش . وإنما هو مقياس الحياة التى تكتب عنها التراجم والسير هى الحياة التى تعاش ) .  
 وكتابة العقاد للتراجم سبيله وسيلنا معه إلى النفاذ إلى النفس الإنسانية وسير أغوارها ، والنفس الإنسانية غاية ما يشغل الإنسان ويستثير اهتمامه وعطفه وتقديره .

وكتابة العقاد للتراجم إنصاف واعتراف  
 وكتابة العقاد للتراجم وهاء وحث على الاقتداء برسم الصورة، وتمجيد البطولة، وغرس الأمل فى الإنسان، والإيمان به ، على الرغم من نواحي الضعف فيه وجواز الخطأ عليه . وما بالقليل هذا فى دفع مسيرة الشعوب وتغذية مطامحها .

\* \* \*











## الفصل الثاني

### عبقرية المسيح

عالية تعلو خمس قامات وتزداد . . .  
باقية تبقى خمسة قرون ثم لا تصير إلى نفاذ . . .  
كريمة ، تؤتي من ثمراتها ما تشتهي الأنفس وتشتي به طيب الطعام ،  
سعيدة تؤتي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام .  
من خشبها صور المحارب وأعواد المناير .  
ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر .  
وتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيها طلباً لقوة  
النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتشابه بركتها  
عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ويرفعون غصن الزيتون .  
بوركت في وحى المعابد والضمائر ، وبوركت في رموز القرائع والخواطر ،  
فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها . ولم يذكروا نعمة  
لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياع ورمزوا بها إلى السلام ،  
ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتوردوا منها في البادية والحاضرة ، وادخروها  
للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصاييح في محاريب الصلاة والتسبيح ،  
ورجعوا إليها باسم من أقدم الأسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

\* \* \*



بهذا الشعر الرفيع قدم الأستاذ العقاد بين يدي عبقرية المسيح .  
وقد استحقت شجرة الزيتون هذا الوصف في أدبه بما وهبت من مسحتها  
للمرسول الأمين .

ولو لم تكن « للزيتونة » إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها  
وبركتها لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

\* \* \*

تناقض وصف الواصفين للسيد المسيح والكاتين فقال قوم : بأنه  
وسيم وقال الآخرون : دميم .

ومال العقاد إلى الوسامة بما ساق بين يدي الرأيين من حجج المنطق .  
ولكني أحسب أنه مال إليها أيضاً باعتزازه الكامن بفردية العظم وتفرد .  
فالعقاد من بين الأقوال والأوصاف التي تتعلق بالمسيح ثم من بين  
ما استخرجه لنفسه من أقواله هو ومنازعه ، رأى المسيح مانوس الطلعة  
يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه . . ( مواهب نفس ) ورآه فصيح اللسان  
سريع الخاطر له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لماذا ؟ ( لأن وصاياه مصوغة  
في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ، ولا يرسل إرسالاً على نسق .  
ويغلب عليه إيقاع الفواصل ، وترديد اللوازم ، ورعاية الجرس في المقابلة بين  
السطور ) (١) .

ورآه ذواقة للجمال محباً للأزهار والكروم والرياض والمروج حتى  
بلغ من حبه الطبيعة أنه كان يتخذ من السفينة على بحيرة طبرية ،

(١) عبقرية المسيح ص ٩٣ .



منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها العشوشب (كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم) (١).

ورآه جذاباً بما يبسطه من طمأنينة، وما يشيعه من حنان الطهر والقداسة .  
ورآه وديعاً وأعلى ما تبلغ الوداعة فيه ذروتها حين تصير رحمة بالخاطئين  
والعائرين (وهي الرحمة التي تبلغ الغاية حين تأتي من رسول مبرأ من  
الخطايا والعثرات) (٢).

والإنسان في صورته العليا عند العقاد - من خلال المسيح - هو  
الذي يجمع بين القسوة والرحمة في إهاب واحد. فليست المثالية أن يكون  
طرازاً غير بشري، ولكن المثالية أن يكون بشراً يخضع لنواميس البشر ثم  
يمالذ الضعف الكامن في الفرائز ويتنصر عليه ما استطاع. وحين لم يستطع  
يكون الأمر قد جاوز حده إلى الحد الذي ينفي العجز عن القدرة فلا يكون  
عاجزاً من لا يستطيع .

من هذا أن المسيح (الوديح الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضييع  
الوداعة والرحمة) .

ومن هذا أن المسيح وهو من أصحاب الرسالات بما تتطلبه الرسالات  
من استبسال كان يشكو حزنه وبثه حين أصدق به الخطر، وأنه كان يدعو  
الله أن يجنبه الكأس الذي هو وشيك أن يتجرعها. (فليس الإقدام على  
الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها في وجه المخاوف والمتالف ، وليس

(١) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .



محظوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيلة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف الحيين ، وإنما المحذور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث يجب الخشية على الروح. وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام (١).

فالعقاد يدور حول الشخصية ويلف طويلاً بعين لامة وأذن مرهقة . إنه يتسقط كل حرف يخرج من فمها في سبيل الوقوف على سرها أى مفتاح الشخصية ليدخل إلى رحابها وشعابها ، فاتحاً به كل قول مستغلق ، أو تصرف يحتمل التأويل والتعليل .

وقد وجد هذا المفتاح في شخصية المسيح في (ابتهالة) كان يرددها في أخريات رسالته وهي قوله : ( اللهم جنبني هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد ) .

لأنه يرى أن القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل هي أن الشك أخوف ما يخافونه ، وأن استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وعلى ضوء هذا رأى موضع الشبهة في نفس المسيح : ( إن السلامة هي ما يريد ، وإن النكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس . فليكن مسيره إذن في غير هذا الطريق وليكن التسليم هو طريق الإيمان ) (٢) .

والعقاد يدرس الشخصية الإنسانية بوجدانه وعقله معاً . وعقله دائماً متعلق استقرائي فهو يؤمن ؛ ( اطراد السنن الكونية في الحوادث الإنسانية

(١) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .



الكبرى فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه (١) .

حتى العصور التاريخية لها عنده مفتاح هو هنا « آفاتها البارزة » التي تكون علامة طريق ونقطة تحول .

وهو يهتم بهذه الظاهرة اهتماماً خاصاً في سير الأنبياء وتاريخ الرسالات . ويبدو من استقراء كتابات العقاد أن آفة كل عصر عنده هي انتقال الحضارة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد فتصير إلى ( أشكال وقشور حيث لا جوهر هناك ولا لباب ) .

وهنا تغيم الرؤية أو تتضح ولكنها في الحالين تحلم بالخلاص . وهنا يكون ظهور الرسل أو المصلحين أو الأفلاذ ضرورة يقتضيها عصرهم ونتيجة تسبقها، إن لم تكن سبقتها بالفعل ، ومنذ أمد طويل ، مقدمات .

والعقاد الذي له في ذهن الكثيرين ، خاصة من لم يعرفوه عن قرب ، صورة قوية صارمة، تعجبه السباحة في نفوس السمجاء، واللين والعفويصدر من الأقوياء القادرين على العقاب .

ففي كتابه عبقرية المسيح كانت سماحة السيد وإنسانيته، سر عبقريته عند العقاد . . إنسانيته الغفور التي علمت ناساً في عصرها من دروس الحب القدسي بما لم تتعلمه من دروس العقاب .

والمثل عند العقاد : المرأة . . المرأة التي كانت ضحية الضحايا في

(١) عبقرية المسيح ص ١٠١ .



ذلك العصر لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يظنى عليه البلذخ من جانب، ويظنى عليه الحرمان من جانب، ويم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوها . . فتنة الغواية ، وفتنة الفاقة، وفتنة الأسرة المنحلة، وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام - فإذا (حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرهما ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ، ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانبها . فعلمها درس من دروس الحب القدسي ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين . وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر الجريح صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهي باقية عالية : صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها) (١) .

حقاً من أحب كثيراً غفر له الكثير من خطايا كما قال السيد ، ولكن العقاد حتى في مواقف الطيبة والسماحة يأبى إلا أن يقرنها بالدكاء صفته المفضلة بين الصفات النوايح فهو لم يكتف بغفران السيد لمخاطئة تتمسح بأعتابه وتتعلق بأهدابه ، بل وقف وقفة أطول ، بموقف من مواقف

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .



الذكاء والتفاد نبح فيه السيد وأنخفق متحدوه الذين تعمدا - وهو في الهيكل - أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة . فاقترح عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهي تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونهم وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ إن الشرك مكشوف على وجه الأرض وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا . إن قال : أرجعوها فذلك حق الولاية يدعيه ، وإن قال أطلقوها فذلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبي الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهي من القضية إلى حل لا يدعي به السلطة ولا ينكرها ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين ، والكبرياء بالتقوى . ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه إليه . وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبيتهم وسؤالهم ، فوقف ورد عليهم رياءهم في وجوههم . وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم : ( من كان منكم بلا خطيئة فليقدم وليرمها بحجر ) . ما أروع حديث العقاد بعد هذا وإن طال الاستشهاد .

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعي تنفيذها ولا يجامل رياءهم بل يدعهم هم يجاولون الخلاص من الحيرة والمضجل بالزوغان . وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه فسألها بنؤال العارف .



أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد أيها السيد فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك فاذهبي ، ولا تخطئي .

( نعم لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيا لأن القاضي لا يدين بغير شكوى وبغير شهود وبغير بينة ) (١) .  
الذكاء ووضاعة التفكير والتعبير من علامات الشخصية التاريخية عند العقاد فعبقريّة المسيح ترى ، فيما يرى ، في الردود السريعة والأجوبة المسكتة ( التي تدل إلى جانب أدلة كثيرة على الشخصية التاريخية ) .  
بإشراقات الذكاء وعطاء القلب والضمير أثبت السيد المسيح وجوده التاريخي وجلاله الأدبي، وإن تجنبت رسالته التشريع وزهدت في سلطات الدنيا والدين .

\* \* \*

هذا هو المسيح ومن بعده ، أتى « أحمد » ليكمل بالتشريع رسالة السيد ، ويحتم بالقرآن من وحى ربه ، والحديث من هدى أدبه ، عطاء النبيين لتبدأ مسيرة العبقريين الإسلاميين .

\* \* \*

---

(١) عبقريّة المسيح ص ١٢٥ .



### الفصل الثالث

## عقريات العقاد الإسلامية

عقريات العقاد الإسلامية أسلوب في الترجمة ومنهج في الدراسة قلما تخطته عين منصفة .

والعقاد في عقرياته يبت قياً ينشدها الدارس والقارئ بعامة والمسلم بخاصة، ولا سيما إذا كان طريق الوصول إليها صعباً والريادة فيه عسيرة ، وهنا يتصدى للأمر قوة المنطق في العقاد ، وحركة الذهن عنده وهي قوية قادرة ، الذهن الثاقب وقدرة المناقشة التي تحلّم المقابلة ، والمضاهاة ، والعلم ، بل تخدم الزمن نفسه بما تعين عليه أحداثه قبل ظهور السيرة وبعدها .

وتتمثل قوة المنطق فيه وقوة التفلسف التاريخي في تناوله موضوع تقديم أبي بكر في الاستخلاف .

ومن خصائص العقاد تخدم الأفعال اليومية للوصول إلى دلالات كبيرة على الشخصية ، وهذا هو الجديد الذي فعله العقاد ، فالحوادث والتصرفات وقعت من أصحابها وعرفت عنهم مروية أو ملونة، ولكنها في كلتا الحالتين صماء إلا عن المعنى الظاهر من ظاهر الألفاظ والحروف، حتى إذا استشفها العقاد، ونفذ إلى أغوارها، بدأت خلقاً جديداً بالمعنى المستبطن، والعبرة المستفادة، والدلالة الكامنة . ويمثل هذه الإضافات تغنو



للتاريخ قيمة حضارية لأنها قيمة إنسانية .

والتفسير النفسى الذى أشرنا إليه يتمثل فى تناوله الشخصية من جميع جوانبها النفسية، وعرض هذا على ما تواضعنا عليه من صفات التفوق الإنسانى .

فيقابل العقاد شخصيته المختارة بالنموذج الإنسانى الذى رسمه الإنسان لنفسه ، ووجه القوة عند العقاد فى قوة الصفة عند ( البطل ) ، ذلك الوجه الذى يعطيها خصيصة أقوى من الامتياز التقليدى المقترن بها ، أى السمة التى تتميز بوصفها بين من يتصف بها من الناس الممتازين ( بالانصاف ) فعمراً مثلاً كان قوياً لا كواحد من الأقوياء ولكنه كان قوياً من طراز متميز القوة إذ كان قوياً ( ليتفجع الناس بقوته ، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته على الضعفاء )<sup>(٢)</sup> .

وقل مثل هذا فى عديد الصفات التى اتصف بها عمر حتى لتعد دراسته، أو بالذات دراسة العقاد له ( غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة . . . ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى )<sup>(٣)</sup> . وما بال قليل هذا ولا بالسهل المثال حتى، حين ينهى إلى مفتاح شخصية عمر ( بطبيعة الجندى ) لا يقف

(١) عبقرية عمر ص ٦٥ .

• اقرأ بحث ( ١ توينبى ، وفلسفة التاريخ ) للأستاذ عل أدم ، مجلة الكتاب العربى ، العدد الحادى والعشرون الصادر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٦٦ .

(٢) عبقرية عمر ص ٥٦ .



ولا يتوقف بل يعطى هذه الصفة سمة خاصة ( عمرية ) تبدو معها بالتفوق ، بعيدة عن طبيعة الجندى هذه وهى منها جد قريب .  
فأهم الخصائص التى تتجمع لطبيعة الجندى فى صفتها المثلى ، إنما تجمعت لها بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش ، ولكنها اتفقت لعمر بالفطرة القوية الموهوبة حتى لا تحتاج - من أصالتها فيه - إلى اكتسابها بطول المراتة وإدمان التعود كالجنود ، وهذا وجه التفوق الذى يرتفع بصاحبه وحده إلى أوج العبقرية ولو اشترك معه آخرون فى صفة أو صفات .

وهنا نلمح ظاهرة الاستقصاء عند العقاد ظاهرة التفصيل ، فحين يقول إن عمر مهوب لا يقف عند الهبة فحسب ، ولكنه يمضى مع المعنى إلى أقصاه ( فهى هبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد ، إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعا يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة ببدله وتقواه )<sup>(١)</sup> .

وهو إذا وصل إلى حكم للشخص أو عليه يمضى يفصله أو يفصله كأنه قاض يقرع الحثيات ثم يزيد هو فيجمع إلى الظاهر ، الباطن حتى ليبدو الأمر استقصاء أفقياً رأسياً معاً . فطبيعة الجندى فى عمر يلتقط لها الفئات الإنسانية فى أقواله وأعماله مما يؤيدها بل يقنع بها الآخرين اقتناعاً . فحرصه على النظام فى صفوف الصلاة ، وحلقات المسجد ، وتجمعات السوق ، ومجالس الحكم حرصاً يأخذ به نفسه قبل الآخرين

(١) عبقرية عمر ص ١٨ .



فيتزل درجة من سلام المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة الأول آحق منه بالتقديم ( ذلك هو السميت العسكري بالفطرة التي فطر عليها ، وليس هو السميت العسكري بالأسوة والتعلم ) (١) .

ثم يرهى في عملية التشريح من جزئيات الشخصية إلى التقسيم الأعم الأكمل كما يسميه فيجمع التصرفات والأقوال في خطوط كبيرة تحدد معالم الشخصية وتؤكد خصائصها ، وقد تحدد هذه الخطوط من قوتها وعمقها بفعل الحفر على الورق الذي يمارسه العقاد في اقتداره معالم عصره ، وخصائص حكم بعينه أو دولة بذاتها ؛ فلفتات عمر في بيئته القريبة المحيطة انبسطت فغدت فعالمها على مستوى الدولة إذ ( دُون الدواوين وأحصى كل نفس في الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه المؤكلون بالتجنيد في العالم الحديث ) (٢) .

وهكذا تطرد نظرات العقاد الخاصة في السيرة معمقة كأنها أحكام حروفها محفورة بالعدل في عمر حاسة كحواس البدن عملها أن تسمو به على نفسه وكانت نفسه أسمى من عامة الأبطال .

ومن عباراته الجامعة التي تغنيك عن أسفار ولوحات مئات الصفحات قوله في إسلام عمر تعليقاً على واقعة أبي مريم السلولى قاتل أخيه ( حسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة يبغيضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد في دينه ، والذي يشدد فيأمنه العدو والصديق ) (٣) .

( ١ ) المرجع السابق ص ٦١ .

( ٢ ) ١ ١ ص ٦٢ .

( ٣ ) ١ ١ ص ٩٥ .



هذه قيمة دينية وقيمة إنسانية معاً . فليس الدين بالطقوس والعبادات ولو صحت وصدق فيها صاحبها ولكنه ارتفاع على الضعف الإنساني لا سيما الغريزي منه، بفعل الدين .

وليس بحق يستأهل التنويه من العقاد إن لم يشمل الأولياء والأعداء على سواء ( فإن الحق الذي يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل في باب السياسة القومية أكثر من دخوله في باب الفضيلة الإنسانية ، وإنما يصبح جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه )<sup>(١)</sup>

وعمر كان بلا ريب أشد المسلمين في إسلامه .

وعمر كان أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب .

وهي قيمة إسلامية إبرازها أجدى على التاريخ الإسلامي من القصص

الشائق والرواية المسهبة .

كان العقاد دقيقاً دقة عمر حين أوصى قاضيه أن يؤاسى بين الناس في مجلسه ، ووجهه ، ولحظه ، وطرقة . وكم في اللحظ من معان تدرك ولا تحس فتسبق الأحكام قبل صدورها بما أرادها عليه القضاة .

والعقاد معنى بالمعاني هي وحدها المقياس والتوقيت الصحيح وإن سبقت التاريخ الزمني لها أو سبقها ، فعمر ثاني الخلفاء ولكنه في ميزان العقاد مؤسس الدولة الإسلامية ( إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الانحاء

(١) عبقرية عمر ص ٩٠ .



مؤسساً للدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الإسلام وأذاته ، وأعزها ببيته وعنفوانه .  
وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة ، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها . . وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم) (١).

في البداوة البادية وضع عمر حجر الأساس لتاريخ وحضارة استطالاً آماداً بعيدة عن البداية الصغيرة التي استهلها وإن كانت أصيلة بقدر ما رزقه عمر من سليقة التأسيس ، تلك السليقة التي هدته أن ينشئ حكومة وأن يحمل الأمر فيها شورى والقضاء تقاليد وأصولاً .  
حضارة لم تنس نصيبها من الدنيا ولكنها واعية بالخلفية الروحية للوجود ، تلك الخلفية التي غابت عن الوعي المعاصر . . ترى الله حياة الحياة أي السر الأسمى لها . . وترى إبداع الكون في اتساقه الغريب . ومن ثم حققت هي الاتساق في أسلوبها .  
وانطلاقاً من هذا الأفق المضيء حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذي ينمى ويضيف . فحياة الروح يقينية بقدر ما هي قادرة على إغناء الوجود الفردي . . إنها تمنح بهجة الرؤية .  
هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الإنسان ولعلاقته بالآخرين .

(١) المرجع نفسه ص ٩٦ .



إنها تهيئ الحلول بشروطها .

إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة .

وترد الشارد إلى مكانه من حياة الإنسان .

وحين تكون الحادثة أو التصرف غريباً بعيد التصديق أو مظنة للنفي، لا يصر عليه بدفاع أو تسويغ ، لأنه ليس همه إنحال الشخصية خوارج الأعمال، ثقة بها وبغناها الذاتي عن إضافات لا تزيد لها حين يكفيها المسلم لها به ، والثابت الصحيح مما صدر عنها بلا افتعال نسبة أو تفسير . فقصه سارية والجل يكفى منها العقاد بدلالة لها أشباه في تاريخ عمر تقوم وحدها دليلاً على المعنى المراد ، فهي في السيرة تعزز النظائر ثم لا تزيد . إن البطولة في مفهوم العقاد إنسانية ممتازة ، والبطل إنسان ممتاز عبقرى موهوب حتى صفاء الرؤية أو النظر البعيد ( تلك المزية الإنسانية النادرة ) لا يقفها العقاد على التدين والعمق فيه ، بل صرح بعقلية رجل العلم بأن من الناس من مارسوا ( التلبأى ) وسجلوا مشاهداته ( وهم ملحدون لا يؤمنون بدين ) .

كل شيء عند العقاد مقنن وبحساب ، فهو لا يخلع على البطل الصفات الحسنى غمراً بلا ضابط، ولكنه يتقصى الأسباب والعوامل ويكشف عن مكنونها . فقرة العدل في عمر شيء طبيعي لأنها قوة اجتمعت له أسبابها حين تعددت هذه الأسباب من وراثته حيث مارست أسرته القضاء في الجاهلية واستشعرت رضا العدل وذاقت الظلم من أقربائها في الوقت نفسه حيث تكثروا عليها بالعدد ، ومن عقيدة دان بها تأمر بالعدل وتشدد



فيه ، ومن تكوين ، ومن عبر الحوادث . وهكذا تعددت الأسباب وكان تعددها ( هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها )<sup>(١)</sup> وأن تهتر فيه حتى ليسوى عمر فى عطاء بيت المال بين المولود اللقيط وبين المولود من زوجين ، وهى رحمة وعدل قد يحجبهما النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون ولا يعدلون .

وحين يجمع إلى عدل عمر ورحمته ، الغيرة على الحق والحرمان والذكاء والمعية الذهن لا يقول إن عمر رضى الله عنه خلق ( بذهن عالم بحاجة منقطع للكشف والتنقيب ، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر إلى مناحى الظنون والفروض ، ولا أنه خلق بذهن منطوق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالمواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه )<sup>(٢)</sup> .

ومن اقتدار العقاد ابتداءه بالصفة وانتهاءه بعكسها مما قد يبدو تناقضاً وهو تكامل . فتصرفات وأقوال التواضع العمرى ليس تصاغراً يكشف الصغر ، ( إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد )<sup>(٣)</sup> .

ويمضى العقاد فى مقابلاته المعمقة الشيقة فيصف ما كان عليه الحال بين النبی وعمر فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر .

(١) عبقرية عمر ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٠ .



ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر .  
فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي  
عند ذى الرأي الصريح .

( فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأى يراه ،  
ولو كان ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال ) (١)

### الإنسان في البطل :

وينتصر العقاد لروعة الإنسانية في البطل ، فعمر العبقري إنسان  
فيه فن وحب للجمال في كتاب (عبقريه عمر) ، عمر المنو بهموم  
الدولة ، عمر الرياضي المشغول بالرياضة البدنية ، فكان يصارع في  
المواسم ويسابق على الخيل ويكتب إلى الأمصار أن ( علموا أولادكم السباحة  
والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر ) (٢).

في كتاب العقاد عمر إنسان عطوف حتى ليتزع الثقة من وال لا يحنو  
على صغاره ، ويتمدح أمام عمر بأن له عشرة أولاد ما قبل أحداً منهم  
ولا أدناه ، فيجيبه عمر ولماً يزل معه الصبي الصغير الذي كان يجلسه في  
حجره يلاطفه ويقبله : « وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من  
قلبك . . إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن  
يمزق وهو يقول : إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟ »

(١) عبقريه عمر ص ١٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٥ .



عمر في كتاب العقاد بطل يروع ويعرف روعة البطولة في غيره ( فمهر  
كان يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر  
نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيها خلا ذلك بصغير في نظر  
نفسه ولا في نظر الناس )<sup>(١)</sup> .

ومن قوة الشخصية فيه قوة الكلمة الجامعة ومن هذا قوله لقاض  
يوصيه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قاتلاً : (إني أسألك أن أقتى بعلم  
وأن أقضي بحلم وأسألك العدل في الغضب والرضا)<sup>(٢)</sup> .

ومفتاح منهجه في رسم الشخصية ( كل صفة تنمى لجميع الصفات  
كما يقول : وكأنما اتفقت لتصبح كل صفة ) أو ( كل خليقة منها على  
أتم قدرتها في بلوغه كما لها وتحقيق غايتها ) فلا العدل ينقصه جهل  
الطبيعة البشرية وضعفها الفطري ، ولا الرحمة يغلبها الهوى فلا تدن بالمساواة ،  
إنما هي ميزات تهلبها الفطنة ويعصمها الإيمان برقابة ساهرة فلا تفضل  
ولا تغوى .

ولعل هذا يفسر وصفه لعمر أو لصفاته بـ ( التركيبية ) ولم يقل :  
التركيب لأنها تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد  
مفهوم ، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .  
وهو في رسم العبقري لا يتكرر بالأخبار والروايات ولو أجمعت على  
صفة تعزز رأيه أو تؤيد اتجاهه بل هو يفترض الشك في بعضها ويبيح

( ١ ) المرجع نفسه ص ١٣٧ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٧١ .



إسقاط الكثير منها ثقة منه بإنسانية الشخصية التي اختارها، وامتياز هذه الإنسانية فيها حتى لبقى منها بعد الشك في الأخبار والإسقاط ما يدل على خصائصها في مجال العبقرية الخاصة بها. وسيبقى ( ذلك التركيب العجيب الذي هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار )<sup>(١)</sup>.

والعقاد لا يسخو بوصف العبقرية على كل ذكاء أيًا كان نوعه أو بواعثه فقد كان عمرو بن العاص ذكيًا يعتمد على ( لباقة وحيلته وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع الإرضاء ) ولكنه لم يزد عند العقاد عن أن يكون عظيمًا من عظماء لا صاحب عبقرية إليه تضاف لأن مزاياه أو سجاياه ( مجموعة من الصفات القوية ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هذه النفس الفطرية. وأعمقها جدًّا هو أظهرها جدًّا أو هو الذي تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسائم وجهه وحركات جسده ) حتى الطموح الذي كان يجيش به إلى فتح البلاد وتغليب الدول وافتتاح المساعي إلى المجد والرئاسة، لم يرتفع به عند العقاد إلى أوج العبقرية ليسامت العباقرة ، لأنه رأى طموحه ( قائمًا على مطالب الواقع في بواعثه ومرامييه ، فكانت نظره إلى الدنيا نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن النظرة الخيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوى الطموح )<sup>(٢)</sup>.

( ١ ) عبقرية عمر ص ٥٥ .

( ٢ ) عمرو ص ٢٧ .



المسألة في عمرو ليست العبقرية بقدر ما هي عارضة قوية هي في رأى العقاد أنيخ ملكاته حتى بلغ من نبوغها أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه قال : آمنت بالله خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

كما أن ملكات عمرو من ذكاء ماض وعزيمة ماضية ولسان ماض وهوى يعضى في زمامه وبتثنى بعد عرامه ، مما يحسب لصاحبها حساب في كل زمان وجد فيه ، ولكن هذا الحساب تصعد أسهمه في أيام الفتن والقلق خاصة واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ويستطيع التأليب والتغليب فهو بهذا كله ( عسير جداً أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله في غيبة الشيع والأحزاب جد عسير . . ) .

أى أن عمرو ( رجل حالة ) لو صح هذا التعبير وليس رجل عصر بعينه أو دعوة بعينها أو مبدأ بداته .

العقاد لا يسخر بوصف العبقرية من تقديسه لامتياز العبقرى وتفرد . فهو لا يشرك معه إلا من يشائيه . وهو لا يطلق صفة وتبذو فضفاضة على موصوفها . إن اللفظة عنده كالقفاز مفصل على اليد التى تملكه .

إن أوجب ما يوجب كتابة السير ( أن تكشف جانب الخير في أغوار النفس الإنسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال ، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور )

لم يسم العقاد سيرة عثمان، عبقرية لأنه لا يؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله



عنه ، حين يؤمن أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين .  
(ومن أبي عليه ميزانه أن يحابي في كلمة تستدعيها المجازاة لما سبقها  
من الكلمات ، لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ . فحسب  
النفس البشرية أملاً أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب )<sup>(١)</sup>.

• • •

وعبريات العقاد فيها قيم يمثلها تقيم الكتابة والكتاب . فالعقاد  
في العبقريات الإسلامية يثبت الإيمان عند الحائر لا بتحلية الوقائع  
التاريخية أو التزويق الأدبي، ولكن بمناقشة المسائل الشائكة التي يجهر بها  
العدو ويخافت الصديق .

ففي عبقرية محمد ناقش دعوى انتشار الإسلام بالسيف . وإذا سلط  
على الاتهام عقله ومنطقه تنافت الباطل إذ الإسلام كما يقول العقاد  
حين حارب يجيوش إنما كان أصحابه يحاربون بوصفهم دولة لا بوصفهم  
مسلمين، وبوصفه نظاماً لا بوصفه ديناً ( هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة  
الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها )<sup>(٢)</sup>.

ويعزز هذا ولا ينفيه فرض الجزية التي جعلها الإسلام ضريبة حرية  
العقيدة يتحمل بها من الالتزام من لا يريد اعتناقه ، وحتى هذه الجزية  
رفعها عمر عن أهل الكتاب للسن والحاجة .

و (الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبه جميع الشرائع وسوغته

(١) عثمان بن عفان ص ٢٠٠ .

(٢) عبقرية محمد ص ٥٨ .



جميع الحقوق ، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ، إلا أن يحال بينها وبين انتضائه ، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها (١).

كما ناقش بمثل هذه الفحولة مسألة زيجات النبي وخاصة زواجه من زينب بنت جحش .

أما في عبقرية عمر فقد ناقش ثلاث مسائل شائكة في سيرة عمر :

- ١ - نفيه عن استخدام بعض اللذنين .
  - ٢ - منعهم أن يتشبهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين .
  - ٣ - إخلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح .
- فاحتكم إلى منطق العقل وإلى مقاييس السياسة ، والحكم في الدولة القديمة أى بمعناها القديم والدولة الحديثة .
- ومن الحقائق التي جلاها كتاب عمر ، حقيقة : موقف الإسلام من الفتوح هل في الأمر شهوة السيطرة واللهج بالحكم ؟ أم هو تأمين الجزيرة مهد الإسلام من الدول العظمى التي تهددها وتتحيفها وهي تتأخمها ؟ وهي نقطة يغنى فيها حديث العلم والواقع التاريخي عن دفاع طويل عن اقرار الإسلام في رأى البعض بالسيف .

كما ناقش العقاد في (عبقرية عمر) حريق مكتبة الإسكندرية وما إلى هذا من أمهات المسائل .

كما ناقش من متعلقات السيرة :

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٠ .



عزل خالد.

وحادثة الواد في الجاهلية . التي ( ما نحسبها إلا إحدى جنائيات  
الأغراب على من خلقوا وفي سيرتهم مثال للأغراب والإعجاب ) (١).  
ولكني أحسبها صحيحة بقريئة الآيات ( ولا تقتلوا أولادكم خشية  
إملاق نحن نرزقهم وإيناكم ) .

\* \* \*

في عبقریات العقاد الإسلامية إضافات كبيرة :

فعمر من عطاءات الإسلام بما طور من حياته وشكل سيرته .  
( كان جاهلياً فأسلم . . . فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ،  
ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل  
طوراً من أطواره الكبار ) (٢) .

عمر إذن من عطاءات الإسلام ، كما أن مواضع البأس في الإسلام  
على عصره من معطيات عمر . يعزز هذا سؤال النبي ربه أن يعز الإسلام  
بعمr الذي وضع أنه أحب الرجلين إلى الله .

وأسلم عمر وحسن إسلامه فكان النبي ( يدخر للإسلام سورته كما  
يدخر له تسليمه وطاعته ) (٣) .

---

( ١ ) عبقرية عمر ص ٢١٤ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٩٥ .

( ٣ ) المرجع نفسه ص ١١٦ .



وأسلم عمر فكان إسلامه كما قال عبد الله بن مسعود ( ففتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ) (١) .

وكتاب عبقرية عمر كتاب ( يقرأ . . فيه القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منسثة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود . كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى ، وتلابس القوى فتنتفى قوته وتجري به في وجهه ، وكان يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه فإذا هي صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضائير والأذهان ) (٢) .

وحسب الكتابة وكاتبها أن تصور حياة فرد فتؤرخ لدين بأسره من خلاله . . . دين هو أحوج ما يكون إلى تصوير قد يدحض عنه التهم ويرحض عنه الأذى ويخلو عن مراميه الشكوك .

ويقارن العقاد في كتابه « عبقرية الصديق » بين شخصيتي أبي بكر وعمر ، أو بين النموذجين الكبيرين في التاريخ الإسلامي ، فيجمع الموقف كله في تقديم وصف على موصوف يكنى في الإبانة عما بين عمر والفاروق ، من فروق .

فأبو بكر كما يقول العقاد كان يعجب بمحمد النبي وعمر كان يعجب بالنبي محمد أي أن ( حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديقه وحبه .

( ١ ) المرجع نفسه ص ١٦٩ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٨٢ .



وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن ، أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جدد قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب (١) .  
ويعضى العقد فى المقابلة حتى ما يتعلق منها بتكوين النبوة وتركيب المزاج فتكون فى جماعها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاها فعالة ، وكلتاها ذات أثر فى الإسلام ، وفى العالم ، جليل .

(وإن العقيدة التى تتسع لهذين الرجلين ، ولهذين الخلقين ولهذين العقليين ، ثم يكون كلاهما إماماً فيها ، عظيماً فى اتباعها ، لهما عقيدة تتسع لكثير) (٢) لكأن العقد موكل بتحريك السطح الراكدة أو تحقيق المفاهيم الثابتة ونفض التلقائية عنها .

فإسلام أبي بكر مثلاً لا يقف به العقد عند دلالة السباحة والطيبة التى قد تغرى الغرض بتحميلها معنى الضعف أو الاستسلام ، ولكنه يتعمقه كالعادة مستبطناً الأسباب البعيدة . . . والقريبة فإذا إسلامه

(١) عبقرية عمر ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) عبقرية الصديق ص ١٢٨ .



الموقف الذى يتخذه كل إنسان فى مثل مواضعاته وظروفه التى خلت من الموانع حين حفلت بالموجبات وعلى رأسها انطباعه ، سليم الفطرة ، على الإعجاب بالبطولة .

( دان أبو بكر إذن بالإسلام سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية وليس تلقائية ساذجة . . فكان جديراً أن يكتب له من اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين فى الإسلام ، وثاني اثنين فى غار الهجرة ، وثاني اثنين فى الظلة التى آوى إليها النبي يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثاني اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبي فى شدة الإسلام وريحائه ، وفى سره وجهه ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين ) (١) .

هكذا العقاد لا يسرد ولا يقص ولا يتسل ولكن يقف وراء التجارب والأعمال والأقوال والظواهرات والأحوال كعلامات طريق . .

\* \* \*

فقى ( عبقرية الإمام ) صوّر عصره على لا بالإنشاء والتخيير ، ولكن بتصرفات أصحابه على مسرحه وأقوالهم وسلوكهم وما وراء هذا من دلالات وعبر .

كانت الخلافة منذ تولّاها عثمان مسرحية كبيرة شغلت أذهان النظارة والنقاد معاً وبلغت الدراما ذروتها بمقتل عثمان .

(١) عبقرية الصديق ص ١١٣ .



واعتنى على نخشة المسرح الأصغر وهو الذى استفاضت شهرته وأعماله على مسرح الحياة الكبير فى حربها وسلمها . . فى عملها وقضائها . . فخسرت الحياة ولم تكسبه الخلافة . .

لم يكن صاحب عصره . عاش فى مرحلة تحويلية يسرع فيها الحكم الإسلامى إلى الملك فى سمته وأسلوبه وغاياته ووسائله وكلها تتعارض مع فروسية الشجاعة ، وزهد الروحانية ، وتقوى العالم بالدين . . تتعارض مع الإمام .

(فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ كما عرف بالإقبال على الدنيا . . . (١))  
ومرة أخرى يقول الأستاذ العقاد :

(خرج « على » إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام) .

ولكن موته لم تكن هلكاً ، وخلافته لم تكن مقطوعة ، فقد عاش على موته الملوك ، وقامت باسمه الدول ، وهو الذى لم تقم له دولة فى حياته . وبين البداية والنهاية أو المقدمة والنتيجة عرض العقاد حياة الإمام بألوان عبقريتها فى الشجاعة والرأى والعلم والروح فما فرغ من العرض إلا وفى كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه . . ملتقى بالعاطفة المشوبة أو بإحساس الرحمة والإكبار . ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى أجواء الذين الحقوه



بأبطال الأساطير ، أو ملتقى بالعقل يفصل بنفسه بين اختلاف المختلفين  
وتشيع المتشيعين .

سنتقى للذوق الأدبي حيث يقع من نوابغ الكلم عند الإمام على مهوى  
للتلوق الحسن ، للجميل من التعبير .

إن هذه السيرة مخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من  
سير الأبطال والعظماء ، وتمس قلبه حين يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه في  
سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والمزينة ويتراءون من بعيد واحداً بعد  
واحد شيوعاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتیاناً  
عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء وهم على  
حياض المنية جياع ظماء .

على بن أبي طالب في كتاب العقاد ، الإمام العبقري ، والشهيد  
أبو الشهداء . . .

\* \* \*

ومنهج العقاد مطرد في كل عبقرياته الإسلامية كأنه علامة مميزة .  
هذا المنهج تستطيع أن تطبقه في ( عبقرية خالد ) فقد رسم خلفية مادية  
وإنسانية للبطل تفسر مواقفه وتصرفاته وآراءه ومنازع السلوك عنده .

وهذه الخلفية لا تستثنى خالصة من مشاعر أو ظاهرة من الظواهرات  
في بيئة البطل العامة أو الخاصة ولو كانت بعيدة في رأى العين أو النظرة  
الأولى عن الموضوع . فجمال المخزوميات يحسب في خلفية صورة القائد  
خالد بن الوليد ( قديماً كانت الفروسية والغزل . . والمرأة بيئة واحدة



تعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال (١) .

يعالج العقاد إسلام خالد فلا يستريح إلا أن يكون إسلامه ( تسليم القلب نفص عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح ) (٢) .  
ولا يهدأ العقاد عند الأقوال المقررة فيقيم عليها بناءه الأدبي أو التاريخي ولكنه يعرضها على الدرس والتعميق فإذا هو يبدأ من حيث انتهت .  
والبدايات عند العقاد جذرية إلى أبعد إمدادات الجذور في تربة البطل أو منبته المادى والمعنوى على السواء .

فالقول بأن خالد ( سيف من سيوف الله ) لا يتعلق به العقاد ليعنى نفسه من متناقضات السيرة فيتجاوز بالقارئ أو بالحقيقة العلمية ( ميدان حنين ) أو صنيع خالد في سرية بني جذيمة .  
لا . . بل لعل العقاد يرى في مثل هذه المزالق مجاله الذى يصول فيه بطاقة الجدل عنده وقدرة الإقناع فيه .

يقول العقاد : ( كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رموس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه في ظلال المحنة والبلاء ) .

ويعنى العقاد بهذا القول عين النبي الملهمة فقد سمى خالداً سيف الله ( قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام

( ١ ) عبقرية خالد ص ٢٧ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٤٢ .



جزيرة العرب ، ويضم إليها العراق والشام . . . وهي الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام<sup>(١)</sup> .

ولا يتردد العقاد في تقرير الخطأ إذا قام عليه من الأحداث والروايات ووقائع الحال ، الدليل . ومن هنا أثبت على خالد الخطأ في وقعة البطاح ( لأنها لم تضاف إلى فخاره العسكري كثيراً ولا قليلاً وأهدفته للام أحمد ما يحمد منه أن له عدراً فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون )<sup>(٢)</sup> .

وقد أثبتته عليه عملاً ببدء تقرير الخطأ بالتنويه بالصواب ( لأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه وجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ )<sup>(٣)</sup> .

ناقش العقاد عزل خالد<sup>(٤)</sup> فلم يقدم اقتناع خالد عندما أقام إلى الهدوء بهذا العمل ، جنوحاً إلى الأسهل بل أجله إلى آخر المناقشة فأنهى به حيث بدأت النفس القارئة في الاقتناع . وهنا لم يترك لها فرصة أطول للتفكير أو الترجيح بل انتهى بها إلى قرار معروف إذ توفي خالد ( وهو يجعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب )<sup>(٥)</sup> .

العقاد نفسه إنسان رقيق الإحساس في الكتابة عن العباقرة والعظماء ..

( ١ ) المرجع نفسه ص ٤٨ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٩٦ .

( ٣ ) المرجع نفسه ص ٩٦ .

( ٤ ) عبقرية خالد ص ١٤٥ - ١٥٣ .

( ٥ ) المرجع نفسه ص ١٥٤ .



فمفخرة خالد بن الوليد أعنى موقعة (اليرموك) قمة نصره الحربي في تاريخه كله لا تلهي العقاد الإنسان الرقيق عن موضع الدلالة في قصة (قلنسوة) خالد القائد الظافر ، الذي يصر على البحث عن القلنسوة في موقف الهول وما هي بالنفاسة التي توجب الحرص عليها أو تؤلم عند افتقادها . ولكن إصرار خالد على العثور عليها إنما كان لتيمنه بها لما حملت من شعر ناصية الرسول .

ويؤمن العقاد على رأى خالد ، أقرب ما يكون إلى القلب الإنساني : ( ما في ذلك من عجب فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلتقي الموت صباح مساء )<sup>(١)</sup> .

لا يستطيع إدراك فعل هذه الكلمة من العقاد إلا من يقرأ كتابه عبقرية خالد الذي يقيد فيه العقاد أنفاس القارئ ليسمعه يمتطى ويمجاد ويفلسف الأشياء الصغيرة حتى تغدو لها قيمة ويصاويل الحجة بالحجة ويستقصي حتى يقفل الدائرة تماماً حتى إذا لثت القارئ من التصعيد إليه وحسب أن مهمته صعبة مع الكاتب العالم المحقق وظن أنه عنه بعيد . . بعيد إذا ، به ، منه قريب قريب . . إنسان مثله يحنو على ضعف الإنسان أمام القوة الكبيرة فيتوسل إليها بالتبرك والتيامن . . وتافلة من صلاة .

إن عبقریات العقاد الإسلامية أجلى على الإسلام من حيث هو دين ونظام وعلى الأدب العربي من حيث هو تصوير وتعبير ، وعلى الأدب الإنساني من ناحية إعلائها للشئال الإنسانية من خير وحرية واستقلال

(١) المرجع نفسه ص ١٦٢ .



رأى وشعور بالتبعية وإيثار للعدل . . أجدى على الدين والدنيا في إجلائها العقيدة واحترامها العقل الإنساني من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم . . وإن أغنت في ناحية أو أخرى - معطيات العقاد التي أسداها مخلصاً لله ، وللإنسان عن إيمان . .

والعقاد يعزوه تعلقه بالموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص ، فيما يعزوه ، إلى وراثته . ( ولدت لأبوين من أهل السنة أبي على مذهب الشافعي وأمي على مذهب أبي حنيفة . وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء الصلاة « صلاة الصبح » حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالي في تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره .

وفتحت أذني كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله . فمولد النبي حفلة سنوية في البيت تترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء إخوتي أجمعين محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتي الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق : عباس حلمي كما كان يتوهم بعض معارف لأنني ولدت قبل ولايته ، وأبيت في المدرسة أن ألقب « حلمي » جرياً على ما تعودته المدارس في تلك الحقبة .

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور



السنة النبوية ، ولكنه كان في بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب الملهية فاستفدت منه كثيراً في دراسة تاريخ الإسلام<sup>(١)</sup> .

هل المسألة عاطفة فحسب ؟ عاطفة توجد عند الكاتبين والأمين ؟ لقد استدرك العقاد ، العقل المفكر ، بعد قليل ، فقال وكأنه لمح هذا السؤال خاطراً يسنح بغير حروف .

(قاربت سير العظماء الإسلاميين و « النبوين » لأرضي ذهني ، ولم يقنعني أن أرضي بها عاطفة لا أستمد من ذهني شواهدا وآياتها ، فعظماء الإسلام عندي أعلام إنسانية ، باذخة تحوها مكان العظمة ، مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام)<sup>(٢)</sup> .

حتى في تاريخه لفاطمة لم يكتبه لأنها بنت محمد أو زوج علي ، أو لأنها أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ولأنها هي (مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير)<sup>(٣)</sup> .

وعلى ما يبدو من صرامة منطق العقاد خاصة حين يحلل أو يسوق الحجج ، فإنه في سيرة الحسين يكتب بقلم مغرورق فإذا السطور عن

(١) كتاب فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ٩ .



سبط الرسول ، منداة بالدموع .

هل أستعير عبارته عن الفاروق بن الخطاب : ( أكثف ما تكون الدروع ، أرق ما يكون الموضع الذى يليها ) .

والعقاد الذى يراه الناس صارماً جباراً ، يرق ويرق فى الكتابة عن الحسين عن أريحية وحب وعطف على موقفه ونفوراً من ظالميه وقاتليه حتى ليقول فيهم وفيه : ( ذهب يزيد إلى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والمحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين .

وانهزم الحسين فى يوم كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ، ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستغلل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى رحلة من النور تخشع لها الأبصار .

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الإنسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث .

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدره وذكره وحسبه . إنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد بن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين ) .

والحسين فى كتاب العقاد ، وكتابه ، سيرة عطرة صافية صفاء النور تلحق بعالم المثال الذى يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن . وليست هذه ، على قيمتها ، كل ما فعله العقاد ولكنه كشأنه ناقش



قضيته مناقشة معمقة خلّم لها فحولة منطقته وقدرته في الجدل والقياس .  
 وكأنه كان يكتب ليقتنع ( بالحسين ) المخالفين والأولياء على سواء .  
 ولا يخدم قضية مهما تراءت قوتها ، قدر مواجهة آراء الطرف الآخر  
 ومناقشتها ودراستها حتى لا يحيك بالنفس شك فيها قد تخفيه ولا تبديه ،  
 وقد تداريه ، ولكنها في الحالين لا تصل إلى مرتبة الصدق الخالص غير  
 مشوب ، وهي مرتبة اليقين .

\* \* \*

وبعد فالعقاد بمجموعة كتاباته الإسلامية الجامعة دعوة واضحة إلى  
 الاعتزاز بالتراث في صوره المشرقة . وإن كان من علماء التاريخ من يرى  
 إبراز الجانب المشرق في عبقریات العقاد الإسلامية نهجاً لطريقة الكمالين  
 من علماء الأخلاق ، غداً منهجاً . ( ومن هنا فعبقریات العقاد الإسلامية  
 ليست سيراً بالمعنى التاريخي المؤلف ، وإنما هي صور أخلاقية قلما يحتفل  
 فيها بالأحداث والوقائع ) . . ثم التطرق من هذا إلى نقد ( التركيز على  
 جانب واحد من جوانب التاريخ خدمة لأهداف مباشرة فهو سلاح  
 ذو حدين ، إذ أنه يقدم للقارئ ، كبيراً وصغيراً ، أنماطاً غير إنسانية  
 لا تتحرك إلا في عالم آخر غير عالمنا هذا ) (١) .  
 على أن هذا الرأي كان يمكن أن يكون أكثر مطابقة لو أن العقاد

(١) من مقال ( عباس العقاد مؤرخاً ) للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

الجلال العدد الرابع - السنة الخامسة والسبعون عدد خاص (العقاد) .



كتب ترجمة فحسب ثم اجتراً بالجانب المشرق دون الجانب الآخر ، ولكن  
العقاد منذ العنوان صرح بأنه يقصد ( العبقرية ) .  
على أن العقاد لم يقتصر على الأنماط العزيزة أو التي لا تتحرك إلا في  
عالم آخر غير عالمنا هذا ، فقد كتب العقاد عن إنسان ( مجهول القدر  
منحوس الحق يصطلح على بحسه والتزول به عن قدره جهل النقاد وظلم  
الأغراض والأهواء ) . ذلكم هو الشاعر المنغبون : ابن الرومي .

\* \* \*



## الفصل الرابع

### العقاد والمرأة

والآن نفرد فصلاً للحديث عن المرأة في أدب العقاد كما أفرد لها هو فصلاً في كتابه عن جيتي . وكتاب يتحدث عن الجمال والحرية والشخصية الإنسانية لا يجوز أن يغفل المرأة فهذه العناصر الثلاثة محور حياتها .

وفي حياة العقاد نماذج للمرأة كتلك التي في حياة جيتي ، فالعقاد يكاد أن يكون مثل صاحبه الذي أحب طائفة شتى : منهن الفتاة والنصف ، ومنهن الشقراء والسمراء ، ومنهن التي أحبها للرشاقة والدمائة ، والتي أحبها للحب والمتعة ، والتي أحبها للذكاء والحصافة ، والتي أحبها للعطف الأثوي الذي يحتاج إليه الرجل الشاعر في حياته النفسية . ولكن أحب إنسان إلى قلبه من النساء أو الرجال كانت أمه التي تشي كتاباته عنها بتفضيله لها على أبيه . . .

وحين يتكلم الأستاذ العقاد عن العبقرية والشخصية الإنسانية فإنما يقصر حديثه ، إذا امتثينا عقيلات بيت النبوة كالسيدة النجبية المنجبة فاطمة الزهراء ، والصديقة بنت الصديق ، - من واقع الشخصيات التي خصها بإعجاب - على الرجل أقولها أنا السيدة بأسف عائب . بل إن الأمر تجاوز هذا إلى التصريح بتفضيله الرجل على المرأة في غير موارد بل في قسوة



أحياناً كثيرة . وهنا أُلح كتابه ( المرأة في القرآن الكريم ) فهو يرى في القوامة الواردة في القرآن الكريم أنها مستحقة بتفصيل الفطرة وأن قوة الجسم في الرجل ورواه سبب من فضل ( فإن الجنس لا يمتاز في جملته بقوة الجسد ، دون أن يرجع ذلك إلى فضل في التكوين يوجب الامتياز والرجحان ) .  
وهل قوى الحيوان كالأسد والنمر مثلاً أفضل في التكوين من الإنسان  
لعامل قوة الجسم ؟

المرأة وظيفتها الأولى في الحياة لا تحتاج إلى ضلاعة الجسد ، بل تحتاج إلى تكوينها الخاص بها المرسوم بحيث ينهض بالأمومة .  
والمرأة - من حيث الشكل - تهوى الجمال لا القوة أى أن تكون جميلة في استدارة لا مفتولة الساعدين ، بل إن المرأة ( القوية الجسد ) والبنيان تعاب في عرف النساء وتوصف بأنها : « رجل » .  
وحين اقترض الأستاذ العقاد ( النقص في التكوين ) بنى عليه الكثير فعنده من النادر جداً أن يوجد بين النساء من تبدع الجمال في فن من الفنون ، سواء كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل .  
ويعارض الرأي الذى يعزو تخلف المرأة في الفنون الجميلة إلى الحجر عليها في صور الجهالة الأولى فهو يرى أن الحجر ( كان شاملاً للضعفاء من الرجال والنساء على السواء ومع هذا نبغ الشعراء والفنانون من طبقة العبيد والسوقة ) .

وتهدر حجج العقاد :

( المرأة لم يحجر عليها في الفناء والعزف ومع هذا لم يتجاوز حفظها من



القناء طبقة الأداء الحسن إلى طبقة الخلق والإبداع) .  
وإن كان الأستاذ العقاد قد نسي قوله في غمرة الفرح بشقاء أم كلثوم  
الذى أوحى إليه قصيدة رقيقة منها :

أيها الكوكبُ السدى	أستعدُّ الأرضَ باللقاء
رددي الطرفَ في الفضاء	، وما أرحبَ الفضاء
واسألني سؤالَ مَنْ	يلجئ الطيرَ في المساء
هل سرى فيه مثلُ صو	تك في الحُسنِ والنقاء
في قديمِ من الزمان أم	خى وفي حاضرِ سوا
لا أحشى من الرجا	لِ قِيلاً ولا النساء

لا تُجيبني . أنا المجيب	ب ولم أغلُ في الثناء
أنتَ كالشمس لا تُعدُّ	د في هذه السماء

ديوان بعد الأعاصير

ومن حججه المماثلة ، الطبخ والتطريز والتجميل من الصناعات  
التي تفوق الرجل فيها وكان الظن أن تكون الصدارة فيها للمرأة .  
وأرى أن مرجع ذلك إن الرجل يمر بمرحلة شبه دراسية من التمرين  
في المطبخ حتى يصل إلى « طبّاخ » لأنه يستعد للاحتراف في البيوت  
والفنادق . أما المرأة فلا تفكر عادة في الاحتراف بهذه الصورة . إن  
المقصود بالطبخ عندها أسرتها الخاصة أو ( أسرة ) غريبة إذا دعاها داعي  
الحاجة إلى العمل بالمنازل .



على أن معاهد التدبير الآن بمن فيها قادرة على ابتداع الأصناف والافتنان فيها وتنويعها وتحسينها . أما من جهة الآداب فقد نجحت المرأة في الآداب على كافة المستويات . فالمسألة ليس فيها استحالة حادة، ومثل هذا يقال عن موضوع التطريز والتجميل .  
يقول الأستاذ العقاد :

( وتنوح المرأة على موتها ، وتتخذ النواح على الموتي صناعة لها في غير مآتمها ، ولم تؤثر عن النساء قط في لغة من اللغات مرثاة تضارع المراثي التي نظمها الرجال ) .

وأقول : هنا أيضاً يتعلق الأمر بقدرة النظم . وهذه يترتب عليها الحفاظ والديوع . ولكن بين ( عديد ) النساء ما يفجر الصخر . وقد دخل فعلاً في عداد الفنون القولية أو الشعبية على الأقل . على أن أشهر مراثي الأدب العربي ما أثر عن الخنساء .

ومثل هذا قاله عن الرقص وهنا أيضاً لا يمكن إطلاق الأمر قاعدة . إن المرأة التي استطاعت أن تدرس الطب والهندسة وتنجح فيها تستطيع أن تدرس الرقص وغيره مما أثير وتبلغ في نجاحها مبلغ الرجل ، وتستطيع أن تفوقهم كما فاقتهم أحياناً كثيرة في ألوان الدراسات الأخرى . والأستاذ العقاد نفسه يقول بهذا ولكن على سبيل الاستثناء الذي يؤيد القاعدة ولا ينفيها ! لماذا ؟

إن أشهر نجوم فن الباليه راقصات مثل بافلوفا و « أولانوف » و « ايزادورا » . لأن فضائل الأجناس في رأيه ( لا تقاس ) بالنصيب المشترك بل



نقاس بالغاية التي لا تدرك ولا تؤخذ بالاستثناء الذي يأتي من حين إلى حين ، بل بالقاعدة التي تعم وتشيع بين جملة الآحاد . وقد يوجد بين الصبيان من هو أقدر على أعمال الرجال ، بل قد توجد في أثناء الليل ساعة أضوأ من بعض ساعات النهار ، وإنما تجري الموازنة على الغايات القصوى ، وعلى الأغلب الأعم في جميع الأحوال ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذي لا بد منه في كل تعميم ) . ص ١٨

لماذا إذن لم يأخذ بهذه القاعدة عند الحديث عن نبوغ العبيد من الرجال ؟ قاعدة الأغلب الأعم ؟

حتى النكته يستكثر الأستاذ العقاد على المرأة النفاذ إليها ! ( إنها قليلة الفطنة للنكته ، إلا في الندرة التي تحسب من الفلتات العارضة ) .  
حتى هذا !!

والنظافة ليست من خصائص الأنوثة إلا لاتصالها بالزينة ، وحب النظافة في أعين الجنس الآخر . ( ولو لم تكن النظافة « قيمة خلقية » مفروضة عليها بإشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة ، لكان استقلالها بنفسها وشيكاً أن يضعها موضع الإهمال والاستئصال ) .

وردي أن بين الأرامل والجذات مولعات بالنظافة دائبات عليها ولا رجال هناك يشرفون على حياتهن العامة أو الخاصة .

تري لماذا ربط الأستاذ العقاد المرأة في كل شيء ، حتى فيما يتعلق بالطبيعة الإنسانية المشتركة بين الرجال والنساء ، بالرجل كأنها كلبه الأمين ؟ حتى صفة ( الحياء ) عندها أو الاحتجاز الجنسي كما يسميه ،



يعده ( من الغريزة التي يتساوى فيها إناث الحيوان ، وليس من الإرادة التي يتميز بها نوع الإنسان بجنسيه ) .

وأقول الاحتجاز الجنسي لا يتساوى فيه الإناث سواء من الإنسان أو حتى الحيوان والدليل من القرآن نفسه . وهنا يكون الاحتجاز الجنسي عند من تتمسك به إرادة ، وقيمة أخلاقية . وهو حياء وليس مجرد اضطرار بدعوى أنه ( الحكم القاهر الذي فرضته عليه وظائف الأعضاء ) .

حياء تفاضل فيه المرأة بين ما يحسن وما لا يحسن وبين ما يليق وما لا يليق وما هو أعلى وما هو أدنى وهو ( ضبط نفس وقدرة على الامتناع ) . وهو امتياز يحسب لصاحبه كما أقر الأستاذ العقاد نفسه بعد قليل في حديثه عن المحاجز الجنسية ومنه ( الرجل الذي يقدر عليها هو رجل ممتاز في خلقته الطبيعية كالمرأة التي تقدر عليها . وكلاهما زوج أصلي من غيره للبقاء وإنجاب الأبناء ) .

وليس بصحيح أن المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي ( لأن الطبيعة جعلتها جائرة للسابق المفضل من الذكور ، فهي تنتظر حتى يسبقهم إليها من يستحقها فتليه تلبية يتساوى فيها الإكراه والاختيار ) .

إن تلبية المرأة حين تلي يسبقها اختيار منها وإرادة ورغبة تفضل وليست التلبية البلهاء أو العشواء .

وعنده أن المرأة متناقضة . ومع تسليمه بأن ( الشخصية الإنسانية ) في حالي الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من النفااض الخيرة للعقول : عقول الرجال وعقول النساء ولكنه يرى التناقض في المرأة أغرب وأكثر !



وهو يعرف مقدماً رد المرأة فيجأهر به قبلها ولا يبالي فيورد أمثلة المرأة في هذا الباب من نحو تشبيهها الرجل بالبحر المالح وشهر أمشير . . . إلخ ، ويعلق على هذا في طرافة تبدد غضبنا نحن النساء أو الكائنات على الأقل من قبيل الفن للفن : يعلق الأستاذ العقاد على الأمثلة النسائية :

(وكم لمن من أمثال هذه الأمثال مما لا يحفل به الرجال) (١).

أكلت حواء من الشجرة وزينت لآدم أن يأكل مثلها .  
وقد لخص الأستاذ العقاد قصة الأنثى في ( هذه الشجرة ) التي غدت عنواناً لأحد كتبه بعد أن رآها عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي إلى لذة العصيان ، ومن دلال يؤدي إلى لذة الممانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشبيه والتعرض والإغراء) (٢) .

حتى حين يظن به أنه يقرها بتفضيل قائما هو مدح معكوف أو ذم ملفوف ، فالحمل توضيحيتها الكبرى ( قد أتاح للمرأة مزية فطرية لا تتاح لزوجها على وجه اليقين ، وهي ضمان نسلها بغير دخل ولا ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذي يستحق عطفها وحنانها ، وليس ذلك شأن الآباء فيما ينسب إليهم من الأبناء) (٣) .

وتبلغ القضية منهاها حين يقول ( إن النساء يوكلن إلى البفطرة في

(١) هذه الشجرة ص ٩٧ .

(٢) ١ ١ ص ١٥ .

(٣) ( المرأة في القرآن الكريم ) ص ٤٤ .



أخلاق الفرائز والعادات ولكن لا يصح أن يتركز في الأخلاق الأخرى  
أخلاق الإرادة والضمير - بغير إحياء شديد ، بل إكراه يتجاوز حدود  
الإحياء ) .

وتفصيلات الأمومة تتساوى فيها مع بعض إناث الحيوان وليست  
فضلاً لها أو فضيلة !!

يخيل إلى أن الأستاذ العقاد كتب هذا الكتاب في فترة عداء كبير  
لامرأة من النساء .

إن من النساء من هن مثال الوفاء للإنسان والمكان والقيم والأوطان  
عن إرادة وضمير وبغير إحياء شديد أو ضعيف وبغير إكراه يتجاوز حدود  
الإحياء . والدليل إجلال المرأة لمكانته الفكرية والأدبية حتى بعد صدور  
هذا الكتاب ، والعدل في الغضب ، والانتصاف عند افتقاد الإنصاف ذروة  
من ذرى النفس والضمير . والكتاب لا يخلو مع هذا من بارقة إنصاف للمرأة  
في بعض القضايا كقضية الشهادة التي يحملها الناس معنى تفضيل الرجل على  
المرأة وهي ليست كذلك . . فالمسألة ترجع إلى طبيعة المرأة العاطفية . إن الدين  
الإسلامي إذ يشترط شهادة امرأتين حين يكتفى بشهادة رجل واحد فإنما  
كان ذلك كما يقول الأستاذ العقاد لأن ( النساء لا يملكن من عواطفهن  
ما يملكه الرجال ) . على أن القرآن الكريم طالب من مقتضيات البيئة  
لحماية البريء وإنصاف المظلوم أن يزداد عدد الشهود من الرجال .

وهنا يتسمح الأستاذ العقاد وتستحيل غضبته على المرأة إلى رفق  
هادئ فيقول توضيحاً لهذا الموقف من مواقف الدين : ( ولقد يوجد من



النساء من تقوم شهادة إحداهن بشهادة ألف رجل ولقد يوجد من الرجال ألوف لا تقبل منهم شهادة ، ومع هذا من مصلحة المجتمع قياساً على الأعم الأغلب أن يحتاط في الشهادة على الوجه الذي رسمه الله .

وفي مسألة الميراث يرى مسوغ : ( زيادة حصة الأخ لا في أفضلية له ولكن في مسئوليته عن نفقة أخته ، وأن الابن يعول من لا عائل لها من أهله ، وأن رب البيت عامة هو الزوج أو الأب أو الرشيد من الأبناء والإخوة ومن إليهم ، وتقرير وجوب السعى على الرجل أولى وأصلح من تقريره على المرأة التي يظلمها من يساويها به في واجبات السعى على المعاش ، مع نهوضها بواجب الأمومة والحضانة وتبدير المعيشة المنزلية ) .

لقد عانت المرأة من الجدل السياسي الذي عاشه العقاد قبل كتابه عن المرأة كما عانت من مزاياه : الإرادة الحديدية والفحولة .

ومع كل هذا فسواء أهاجم الأستاذ العقاد المرأة أم هادنها فقد دان لها وقيل منها الوجه بل اليمين وجاش بالدمع وجاش بالشعور وما ارتوى على كثرة العب وطول الرشيف . إن شعره في هذه الناحية ينكر ثره . . . شعره الرقيق في الغزل ، ينسخ عرام منطقة في الجدل .

ومن شعره في ( ليلة الوداع ) :

وَهِيَّاتَ لَا تَلْقَى مَعَ النَّارِاَوِيَا	وَالْتُمُهُ كَمَا أَبْرَدَ غُلَّسَنِي
وَقَبَّلْتُ خَدَيْهِ وَمَا زِلْتُ صَادِيَا	فَقَبَّلْتُ كَفَّيْهِ وَقَبَّلْتُ ثَغْرَهُ
فَنَشْتَدُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ تَدَانِيَا	كَأَنَا نَدْوُ الْبَيْنَ بِالْقُرْبِ بَيْنَنَا
إِلَيْهِ فَأَمْسَى آخِرَ اللَّيْلِ شَادِيَا	كَأَنَّ فَوَادِي طَائِرٍ عَادَ إِلْفَهُ



إذا ما تضاممتنا ليسكنَ خفقه  
أوشج في كلتا يديه رواجي  
وتلمس كفى شعره فكأنني  
وأشكوه ما يبجي ، فينفر غاضباً  
ولا تقضى الليل إلا أقلسه  
وحان التناهي جشت بالدمع باكياً (١)

خاصة الفرد الممتاز يتخذ نفسه ظاهراً أو باطناً ، أراد أم لم يرد ، مقياساً  
للآخرين . وسيراً مع هذا المنطق ، فإن العقاد ما دام خلق رجلاً ، فالرجل  
إذن أحسن من المرأة بعامة . . . والعقاد بالذات أحسن ، بصفة خاصة من  
(سارة) التي عذبتة . . . وكل سارة . . . أليس رقيقاً ناعماً ؟ يتحنن ويترضى  
ويقبل الخدين بل البدين ؟ ماذا تريد المرأة من مظاهر الغلبة الآسرة أكثر  
من هذا ؟

ويزيد هذا قيمة أنه لا يفعله للتشهي أو التلهي ، بل إنه يحب المرأة  
لذاتها . . . لا للجمال .

نبئيني ، فلست أعلم مسأدا  
كل حسن أراك أكبر منه  
لست أهواك للجمال وإن كا  
لست أهواك للدلال وإن كا  
لست أهواك للخصال وإن ر  
لست أهواك للرشاقة والرق

منك قلبي بحسنة مشغوف  
إن معنالك تاليد وطريف  
ن ذكاء يذكي النهي ويشوف  
ن ظريفاً يصبو إليه الظريف  
فأعلينا منهن ظلل وريف  
ة والأنس وهو شتى صنوف



أنا أهواك (أنت) أنت فلا ش  
 إن حباً يا قلب ليس بمنسـ  
 ى سيوى (أنت) بالفؤاد يُطيفُ  
 إليك جمال الجميل حبٌ ضعيفٌ<sup>(١)</sup>

بل إنه نزه المرأة عن شهوة الجسد وثار عليها حين تردت :

تُريدن أن أرضى بك اليوم للهوى  
 وألقاك جسماً مُستباحاً وطالما  
 وأرتادُ فيك اللّهُو بعد التّعبدِ  
 لقيتُك جَمَّ الخوفِ جَمَّ التردّدِ  
 رويدكُ إني لا أراكِ مليسةً  
 جمالكِ سُم في الضّلوعِ وعثرةُ  
 تزدُ مهاد الصّفو غير ممّهّد  
 ففي غير بيتٍ كان بالأُمس مسجدي<sup>(٢)</sup>  
 إذا لم يكن بُدُّ من الحانِ والعلّٰى

طراز آخر من الرجال . . فيه نصاعة القمم . . .

مرة أخرى أعود إلى رقيق غزله بعد التجنى بجنى صاحب (كأس على  
 ذكرى) . . . بجنى القائل :

صوتُ النذير الذي أبقاكِ خائفةً  
 أو البشير الذي يدعوكِ ثائبةً  
 على ذراعى قُصولي كيف أخشاه ؟  
 إلى الطريق لعمري كيف أرضاه  
 الحبُّ والحربُ وإيلا قد اجتمعا  
 وله في الصدار المشهور :

هنا مكانُ صدارك  
 والقلبُ فيه أسيرُ  
 هنا هنا في جسوارك  
 مطوّقٌ بحصارك

\* \* \*

(١) أشجان الليل ص ٣١٦ .

(٢) أشجان الليل ص ٣٣٢ .



نَجْنِسُهُ بِيَدَيْكَ عَلَى هُدًى نَاطِرِيكَ  
إِذَا احْتَوَانِي فَسَانِي مَا زِلْتُ فِي أَصْبَعَيْكَ<sup>(١)</sup>

العملاق يتطامن ولكن للحبيب ! فحسب . . .

هو ينتقص المرأة أو على الأقل يراها دون الرجل ولكنه يضعف أمامها  
حتى ليصرح مرة أنه بين أصبعيها وتارة لدى قدميها ! ! هذه أبياته :

أبيات العملاق الذي ما دان حتى للطفنة يلتقى سلاحه ويقول :

أريد التي أَلْقَى سِلَاحِي وَجَنَّتِي إِلَيْهَا وَأَلْقَاهَا بَيْنَ الْبَاسِ أَعَزَّلَا  
وَأَطْرَحَ أَعْبَاءَ الْجِهَادِ وَهَمَّهِ لَدَيْ قَدَمَيْهَا مَغْنَمُضَ الْعَيْنِ مُرْسِلَا  
وَأَنْتِ إِذَا أَقْبَلْتِ أَقْبَلْتِ جَحْضَلَا وَجَرَدَتْ أَسْيَافًا وَشَدِيدَتْ مَعْقِلَا  
فَإِنْ تَهْزِمْنِي فَاهْزِمِي عَنْ بَصِيرَةِ مَرِيدًا لِأَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ مَقْبِلَا<sup>(٢)</sup>  
ويقول :

أَهْجُوكِ يَا أَكْسِرَمَ مِنْ أَمْدَحَ وَمِنْ يَاطِرَانِي لَهَا أَصْدَحُ  
أَهْجُوكِ وَالتَّسْبِيحُ أَحْرَى بِمَا أَجَدَّ فِيهِ الْيَوْمَ أَوْ أَمْسَزَحُ  
فَسَامْسِيَّةٌ أَنْتِ وَلَسْكَنْتِي أَقْبَلُ الْكَفَّ السَّيِّئَ تَجَرَّحُ  
وَأَعْظَمُ الْقَسْوَةِ تِلْكَ الَّتِي يَلْهَوُ بِهَا الْمَجْرُوحُ ، بَلْ يَقْرَحُ<sup>(٣)</sup>

وفي ( أعاصير مغرب ) قصيدة بعنوان ( هذا هو الحب ) .

بلا نواح أو جراح أو سهاد أو دموع أو خضوع ذليل ، عرف العقاد  
الحب : شفافية ، وفهم ، وغفران ، وإعذار ، وبهر ، وإحجام ، وإقدام ،

( ١ ) أعاصير مغرب ص ٣٥ .

( ٢ ) أشجان الليل ص ٢٩٩ .

( ٣ ) ص ٣٠٢ .



وسكر بغير خمر ، وخمر بلا دنان ، وعمران وعهدان ، وارتفاع فوق الذرى ،  
وهبوط تحت الثرى ، وإيثار للذة ، وآلام تُرى آثراً . . . جنة ونار ورى  
وسعار ، وفيض من الوحي والشعر ، وغيض من النظم والقصيد :

مسألة أسهلها صعبُ  
لا الناسُ تدرىها ولا الكتبُ  
حسبك منها ، لو شقتُ حسبُ  
إشارةً دقَّ لها القلبُ

المرأة في شعر العقاد هي الدنيا :

ماذا من الدنيا - لعمري ، أريدُ	أنتِ هي الدنيا ، فهل من مزيد ؟
فيسلكُ لنا نوراً وناراً معاً	وأنجسُ زهراً وأفقُ بعيدُ
وفيسلكُ روضٌ مسفرٌ عاطرُ	وجوهرٌ حرٌّ وذرٌّ نضيدُ
ونشوةُ الخمرِ إذا قوبلتُ	بنشوةٍ منك متاعُ زهيدُ
والفسن إن لم تكُ نجواه منُ	نجوالكِ لغو باطل لا يفيدُ
وكل ما في الكسوفِ من روعةٍ	لها نظيرُ فيسلكُ حى جديدُ

أشجان الليل

وكأنه بعد الكفين والقدمين تذكر شموخه وصفات العلم فيه والذكاء ،  
أولعله تذكر كتابه ( هذه الشجرة ) ، أو كتابه الأشد فسوة ( المرأة في القرآن  
الكريم ) ، فبرر جنوح قلبه بقوله إن ثروته من الوفرة بحيث لا يضيرها  
تبديد درهمين !!

أكليني مرةً أو فأكليني مرتين



ألف ألف من أعاجيب  
لن تبيد الفارق الخا  
والسماوات السنى ييد  
سبك في غشٍ ومين  
لد يا قُصرة عيسى  
سبك في اللب وبينى

أكذبنى واكذبنى  
ما غناء اللب عندى  
أنا فى ثروة وفقر  
أنقصيها . أى ضمير ؟  
كلما شئت اكذبنى  
ان أبى أن تخذعنى  
منه مهما تسليبنى  
درهماً أو درهماين !!

تبرير على أى حال .

\*\*\*

وحين قرأت كتابه ( فى بيتى ) اشتبهت أن يفتقد المرأة فى هذا البيت  
ولكنه لم يفعل ! حين تحدث حديثاً طويلاً عن كتبه . . عن النور . . .  
عن . . . ولكن شعره وشى به فى نفثة من نفثات النفس :

ظمانٌ ظمانٌ لا صوبُ الغمام ولا  
حيرانٌ حيرانٌ لا نجمُ السماء ولا  
يقظانٌ يقظانٌ لا طيبُ الرقاد يُدا  
غصانٌ غصانٌ لا الأوجاعُ تُبلىنى  
أسوانٌ أسوانٌ لا طبُ الأساة ولا  
سأمانٌ سأمانٌ لا صفو الحياة ولا  
أصاحبُ الدهر لا قلبٌ فيسعدنى  
عذبُ العُدام ولا الأنداءُ تروينى  
معالمُ الأرض فى الغماء تهدينى  
ينى ، ولا سمر السمار ، يلهينى  
ولا الكوارثُ والأشجانُ تُبكيينى  
سحرُ الرقاة من اللأواء يشفينى  
عجائبُ القدر المكنسون تعنينى  
على الزمان ولا خيلٌ فيأسونى<sup>(١)</sup>

( ١ ) وهج الظهيرة .



وإذا عرفنا أن العقاد أحب أكثر من مرة وظفر بالحب ، تبينا أن القلب الذى يعنيه هنا إنما هو القلب الباقى . . قلب الزوجة . ويؤكد هذا الأبوة الكامنة فى شعره والتي تظهر فى وصفه للطفولة ودلها، وصف والد متحن ( قصيدة بين محمد وعزوز ) . وصورته الطريفة التى رسمها لطفلة يداعبها :

ما كان أملح طفلة	من غير شيء تخجل
ضاحكها فتمايلت	وشعورها تهدل
ورجوت منها قبلة	فأبت كمن يتدل
وتعبت وهى تصدني	حيناً وحيناً تُقبل
فرفعت مرآة لها	فتطلعت تتأمل
قلت انظري فى وجهها	أفانت أم هى أجمل
قالت وفيها غضبة	أنا بالملاح أمثل
ومضت تقول إلى متى	تنسى الجميل ونجهل
وأقول أيكما إذن	أدعوا بها فأقبل
عطفت على وكل مجبو	ب يغار فيسهل <sup>(١)</sup>

بقى سؤال يلوح فى الخاطر . . ما رأى العقاد فى الجمال ؟  
والجمال فى المرأة هو « الحرية الموزونة » قياساً على قاعدته فى الجمال  
إنه الحرية .

وكأنه يلمح ( نفرتينى ) . أو ( نفرتارى ) . . . جمال ( المصرية ) فى

( ١ ) يقظة الصباح .



العصور الأولى أيام كان ( المصريون في عظمتهم قبل آلاف السنين يستجملون من الأجسام كل حر رشيق ويجعلون الأمثلة العليا للجمال تلك الصور التي توشك أن تطير من الخفة كما نراها على بقايا الآثار ) .

الجمال المصرى القديم الذى ثاب إليه العالم كله بعد الحرب العالمية جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق .

ويرى هذا اللوق في الجمال مقياساً على تقدم الأمة حين يدل الشحم واللحم على تأخرها وركودها ركود البطء والكسل حتى ترى ( الكثافة الواهنة ) كما يسمى الأستاذ العقاد ، البدانة ، مقياس الملاحاة ! وجمل الحمل أو ( التختروان ) مثال الحسن المطلوب في النساء .

ومن طريف قوله في هذا : ( تعلو المرأة السمينه وتهبط في مشيتها وما تنتقل شبراً واحداً في أقل من خطوتين ، والمقرظون من حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ويعوذون هذا الجرم الذى لا تمضى فيه السيوف . . من لحظات العيون ومن حسد الحاسدين ) .

وبمناسبة الجمال ، يقول الأستاذ العقاد إن أقبح رجل في عين المرأة أجمل من جميلات جنسها ويلج عليه هذا المعنى حتى على الشاطئ والفتنة من حوله يقظى تصول ويجول . وترى عينه إحدى العرائس تقبل صاحبها فيغبطها أو يحسدها لست أدري :

راحت إلى ترب مخاصرها	كلتاها في ضحوة العمر
راحت مخاصرها وتلثمها	وتضمها حيناً إلى الصدر



لا تلثمي فيها فما ظمئت يوماً لريقك والشمى ثغرى<sup>(١)</sup>  
وقد أوضح العقاد في (سارة) الصفات التي تعجبه في المرأة وإن  
كان فصل هذه الصفات على مقاسه هو إذ يقول :  
( موقليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ، ولا مبالغة ،  
ويسمى المرح الذي يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً « موقعاً » تشبيهاً بالفناء  
الذي ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف .  
ويسكن حينما يطلب منه السكون ، ويقف ويسكن على اقتضاب موحش  
وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية  
تحتم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذي يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع  
وطرافة السماع .

وهو يحب من المرأة الزينة التي تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى ،  
ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تعتمد ولم تفكر فيه لما استطاع أحد  
تكذيبها ببرهان .

وهو يحب المرأة التي تترك الفكاهة ويكره التي تتخذ من فكاهتها  
صناعة أو معرضاً مفتوحاً في كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على إتيان  
المزاجين هو دليل « نيتشه » الذي يقول إن الضحك من نكتة واحدة  
هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين في المزاج والتفكير ، وما انفصل  
اثنان بفاصل هو أبعد من اعتمادهما في تمييز النكات .

وهو يحب ربة البيت التي تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة ،

( ١ ) بقطة الصباح .



ويحترق المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحترق الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره .

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « إنساناً » في بعض الأوقات بمعزل عن الأنوثة والذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة (١) .

وقد ظفر العقاد في دنيا القلب بذلك النموذج الذي تخيله أوحدده ، ظفر به مفرقاً ومجماً . فكانت الحبيبة الأولى ( إنساناً ) وكان ( يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكان كثيراً ما يتراسل أو يتحدثان وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية واجتناباً للقليل والقال ، وتهدئة من جماح العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع . . ولكنهما في جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جلوره ، ويتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق . وكان ينازله فتوى إليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظر إلى عينيها لم يدرك استزیده أم تنهيه ، ولكنه يدرك أن الزيادة ترتفع بالنعمة إلى مقام التشويز . وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والأمل ، فإذا لقيها بعد ذلك لم يرفها ما ينم عن استياء ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح ) . ويبدو أنه جاراها في أسلوبها - وقد كانت صاحبة



أسلوب - فكنى عنها باسم ( هند ) ولم يصرح باسمها المعروف الذى كان هو الآخر كناية عن الاسم الأصلى الثابت فى شهادة الميلاد .  
وجه الثانى أى « سارة » . . لون آخر ولكنه يقابل النموذج الذى رسمه للمرأة المفضلة عنده فى مواضع شتى .

وصف العقاد سارة بأن ( لونها كلون الشهد المصنى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة . وعيناها نجلاوان ، وطفوان ، تخفيان الأسرار ولا تخفيان التزعات ، فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة ، وفيها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تحجل العقد النفيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجهه وبضاضة جسم لا تفرقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر . وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيداً كأنه الحلية الفنية سبكت لتسجم بينهما وفاقاً لتام الحسن من كليهما . . فليس هو جيداً كأى جيد . . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام ) (١٢) .

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين تفرقت صفاتهما فى ذاتيهما واجتمعت الصفات والدوات عند العقاد حتى بعد أن غابت الغريمتان .

( كلتاها أنثى حقاً لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتناظر بحيث لا تتمنى إحداها أن تحل محل الثانية ، وتوشك أن

تزدريها .



فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة في دير ، من غير حاجة إلى دير .

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشىها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجواهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة ، إذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة ، أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هي النعم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .  
تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداواة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة .

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاسة والبساطة .  
لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت في السلك السياسي ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديماً في حاشية أمير مفراح .

كلتاها جميلة ، ولكن الجمال في هند كالحصن الذي يحيط به المخندق ، أما الجمال في سارة فكالستان الذي يحيط به جدول من الماء







النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والتفود .

تلك ذات طموح وهم ، وهذه تحسب الواقع الذى يوائمها خيراً وأشهى من كل مطعم ومن كل همة .

تلك تعطيك خيراً ما أعطت على البعد والحيطه ، وهذه تعطيك خيراً ما أعطت على القرب والسرف .

كلتاها ذات ثقافة وألمية ، لكن ثقافة هند إلى المعرفة ، وثقافة سارة إلى الفطرة .

يقول العقاد - الذى هو فى القصة . . . همام : .

( ما زالت الصور النسائية تتوارى وتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين إحداهما قائمة فى محراب ، والأخرى باثقة كالزهرة من زبد العباب .

وتعاقبت الأيام فأصبحت إحداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالاً من لحم ودم )<sup>(١)</sup> .

ولكن ذلك كتب قبل أن يلتقى العقاد بالفاتنة المصرية السمراء التى تركت له بدورها صورة مشهورة رسمها له أولها الفنان صلاح طاهر .

\* \* \*

طويلة قصة العقاد مع المرأة ولعله لخصها فى هذه السطور :

( حواء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يُخرجن من جنات . .



فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندرى . . ولكنها هي المرأة  
أبداً لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها أو يسعد بغير سعادتها ، وليس  
يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون  
كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن تشاركه  
السعادة الوافية ، إن كان للسعادة سبب سواها (١) .

والجملة الأخيرة تشي بإمكانة المرأة عند العقاد أو نظرتة إليها سواء  
رضى عنها أو رضى عليها .

إن المرأة في الحالين تريد أن تكون شغل الرجل الشاغل . . وقد  
كانت . . من واقع أدب العقاد . . لقد كتب العملاق عن المرأة ستة  
كتب :

الإنسان الثاني - سارة - هذه الشجرة - المرأة في القرآن الكريم -  
الصديقة بنت الصديق - فاطمة الزهراء .

وقد أشرث إلى الأربعة الأولى في ثنايا هذا الحديث والآن نقف وقفة  
عند كتابيه عن أم المؤمنين عائشة وأم الشهداء فاطمة الزهراء .

وأم بطل كربلاء لم يكتب لها العقاد ترجمة كما سبقت الإشارة لأنها  
بنت محمد أو يكتب لها ترجمة لأنها زوج على أو يكتب لها ترجمة لأنها  
أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ولكنها مع هذه الكرامة كتب لها  
ترجمة لأنها هي فاطمة ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي  
تتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير .



وإلى فاطمة الزهراء نسب فضائل بنيتها وإن كانوا ورثوها عن علي كما ورثوها عنها ولكن الأستاذ العقاد رأى هذه الخصال (إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام) (١) .

وأوضح سمة في شخصيتها عنده (الجد) وفي خلاتها منه مدد صالح (لثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه ، أو يلداد عنه فلا ينكص عنه على رغم) (٢) .

وهذا الثبات رسم مسيرة أبنائها على طريق التاريخ الإسلامى . فإذا كانت الزهراء قد غوضت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين فمعنى هذا كما يقول الأستاذ العقاد أن هذا الجدد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة ظهرت منها وهى فى تلك السن الباكورة فذلك عنده (دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلاتي بنيتها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين) (٣) .

وهذا الإقرار من الأستاذ العقاد فى دلالة العامة كسب للمرأة قبل أن يكون كسباً للسيدة البتول . أما السيدة عائشة فقد ترجم لها مثلاً من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها .

\* \* \*

فالأستاذ العقاد لم يستطع أن يغفل المرأة أو يغفل عنها وكيف وقد بلغ

(١) ص ٧٢ كتاب فاطمة الزهراء .

(٢) ص ٧١

(٣) ص ٧٣ .



من قوة أثرها فيه أو عليه أنه جفا من جفوتها طريقاً كان رقيقاً إذ شهد وسمع السر والنجوى ( فأصبح بعد الخصام كل خطوة فيه كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام . وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصيдаً من الشياطين الثائرة والعقبات الكاسرة وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات ) (١)

ليس للمرأة أن تتغضب من العقاد فقد أغضبته هي الأخرى ، ثم نسي غضبته ونسيت ولم يبق إلا إكبارها له وإكبارها لوقفته المبكورة معها سنة ١٩١٢ حين نادى بتعليم المرأة تعليماً عاماً لا تعليماً نسوياً مصعداً بها إلى الأفق الأعلى من الثقافة الإنسانية الرحية .







## الفصل الخامس

### الإنسان في شعر العقاد

كان العقاد إنساناً حين اختار شخصياته التي كتب عنها وحين انتهج هذا الأسلوب في الكتابة والتفسير . والعقاد حين أعلى من كرامة الإنسان كانت هذه عنده رسالة التزمها في كل ما خطت يده نثراً أو شعراً . ونستطيع أن نرى قيمة هذا إذا عرفنا أنه نشأ في أواخر القرن التاسع عشر وبلغ مبلغ الرجال في الثلاثينات من القرن العشرين . أي عندما كان الشاعر نديماً لكبير، أو سميراً في مجلس، أو بوقاً للملك أو ظلاً لآخرين تحت مختلف الأسماء . أيام كان الشعر مدحاً والشاعر مداحاً على طريق وطريقة الشعر العربي القديم وهو ما ندد به الجاحظ في بيانه هاجمه العقاد والملازني وشكري ، أعمدة مدرسة الديوان ، هجوماً عنيفاً في مطلع الحياة الأدبية . متصبرين لكرامة الإنسان ثائرين على هوان الشاعر في القصيد الكاذب والنظم الأجوف . وقد تركت هذه المدرسة بصماتها على الحياة الأدبية . وليس معنى هذا أن العقاد لم يمدح قط ففي ديوانه ( أعاصير مغرب ) قسم خاص بالمدائح والمرائي ، ولكنه إذا استثنينا مدحته في ( فاروق ) فإن مدحه الآخر قليل في أناس كانوا يحترمونه بقدر احترامه لهم ، بل كانوا يعرفون لقلمه سطوته . ألم يدعه سعد ( الكاتب الجبار ) ؟ وقد مدح العقاد



سعداً الذى أكبره ، عندما كان الوفد يمثل الشعب . وفى قصيدته ( يوم المعاد ) ينبع كل شىء من مصر والشعب .

ورثا العقاد ، سعداً ، بقصائده نهى تنتظم ما يقرب من مائتى بيت ( ١٨٧ بيتاً ) فى ديوانه ( أشجان الليل ) فيها صدق اللوعة وزفرة الأسى . ومدح العقاد إعجاب رزين فلم يكسف الشمس لأحد ولم يحشد له ألوان صيغة ( أفعل ) .

على أن مدحه ( لفاروق ) إنما كان فى مطلع عهده عام ١٩٣٨ أيام كان مرجى ( فى طالع الأيام مرتقب ولم يكن قومنا يختلف منهم اثنان على حب فاروق فى ذلك الوقت . وكان حبنا له أمل ورجاء وعطف على صباه الأعزل وهو الملك ! فنحن شعب عاطفى كنا نراه يتجأ والعرش تحته . ومع هذا فقد ذكره العقاد فى مدحته ( بالشورى ) .

وقصيدة فاروق لا تخلو من طرافة . فيحكى الأستاذ العوضى الوكيل فى كتابه ( العقاد والتجديد فى الشعر ) أن الأستاذ العقاد وقف يلقى القصيدة وعندما بلغ البيت الثامن قال فاروق لمن حوله ( لقد كان والذى أحق بهذا ) وسمعها العقاد فطوى الورقة وجلس ولم يكمل القصيدة ، وكانت أزمة كبرى ، استمرت ثلاثة أيام وانتهت بأنه - ترضية للعقاد واعتذاراً له - يدعو الملك إلى حفل شاي بيخته الراسى أمام مرسى مطروح ، ويقول العقاد ( إن القدر لم يشأ أن تم حفلة الشاي فثار البحر ومنع الوصول إلى اليخت . . . وعاد العقاد إلى الإسكندرية ) .



إن المسألة ليست المدح في ذاته وعلى إطلاقه فقد مدح العقاد ورثا  
كلبه ( بيجو ) شعراً وثرأء، إنما ملاك الأمر شخصية الشاعر وإحساسنا بذاتيته  
الإنسانية أى إحساسنا بذاتنا من خلاله ولا عليه بعد هذا أن يقول ما يريد  
وفي أى إطار يشاء .

ومثل هذا رثاؤه . فقد رثا السلطان حسين والرثاء في رأي مدح للميت  
وما خرج عن مألوف قاعدته لأن السلطان حسين كان عهداً قصيراً خفيفاً  
يحتمل :

مرت ثلاث سنه وهى كأنها      صبح غداة أمس حل ظلامه  
مرت مخففة الصروف سريعة      وكذا الرخاء سريعة أيامه  
ولكنه في جملة رثاء من قبيل ( اذكروا محاسن موتاكم ) ليست فيه  
الفجیعة أوحى الحزن . ولكنه حين رثا نبى الوطنية المصرية « محمد فريد » ،  
تفطر أسى :

أطلقْتُ وُجداني ومثلُك يطْلِقُ	فالنفسُ تألَمُ والجوانحُ تحْفِقُ
مرَّتْ بيَ الأيامُ أنكرَ كلِّ ما	يُبْدِي الخيالُ وما يُعيدُ المنطقُ
أجفَوُ الكلامَ ، وقد يُغَوِّثُ مَكْتَبُ	ناجٍ ويسْكُتُ في اللَّفْلِ من يَحْتَقُ
أَسَى عليكِ وقد تَقَسَّمَكِ القُصَى	والشُّوقُ والألمُ المِلحُ المَصْبُوقُ
في عالمٍ يَسَعُ المسدَّاتِ والقُرى	فإذا طَلَبْتَ الحقَّ فهو المَسْأَزُ
وغدوتُ كالشَّيخِ المَرْدِّ كلِّ ما	دَجَّتِ الحوادثُ يَسْتَأْرِ فيطْرُقُ
مُثَلَّتْ لعيني صورتاك فرايَني	نظري ولكن الفجائعَ تصدُقُ
أكذا تحور النفس في أجسادها	أكذا يحول الرونق المتسألسق



في هذه سَمَتِ الحَيَاةَ ، وهذه  
وهنا الطَّمَاحُ المَشْرُتِبُ ، وها هنا  
شكلاَن ما اختلف اختلفا فهما على  
حالت مجالى البشر وانطقا السَّيِّ  
في خمسة الأعوام بُدِّلَ كُلُّهُ  
وتساءل الأحبابُ كيف تروْنِه  
وَأَبَى النَعْيُ فَقَسَّالَ كُلُّ مَرْوَعٍ  
ما مات قبلك يا فريدُ مجاهد

فيها الحَيَاةُ بَقِيَّةٌ تَعْلَقُ  
سَأْمٌ عَلَى رَغْمِ التَّجَلُّدِ مَحْدَقُ  
بُعْدِ الوَشِيحِ مَغْرَبٌ وَمَشْرِقُ  
في وجهك الضاحي وغاصَّ الرَوْنَقُ  
إلا سَمَاحَةً مَاجِدٍ لَا تَخْلُسُ  
فتلعثموا حذر الجسوابِ وأطرقُوا  
اليوم تُبَدِّلُ الدَّمُوعُ وَهِيَ سَرَقُ  
إلا وَأَنْتِ السَّابِقُ الْمُتَفَسِّقُ

لم يرث العقاد أحداً من الحاكمين كما رثا رجال مصر ، لم يمدح  
أحداً من الحاكمين كما مدح « رمسيس » في اعتزاز الحي بنفسه ،  
والمصري بأمسه ، والوطني بكرائم تاريخه وآيات مجده .

لجلال وجهك يا ابن ( سَيِّ ) هِيَّةُ  
لما وقفتُ لَدَيْكَ زَالَتْ أَعْصَرُ  
وتفشَّعتْ عَنِ الدُّهُورِ فها هنا  
فخر الملوك رجاء عفوكة عنهم  
والأمرُ أَمْرَكَ مَا قَضَيْتَ فَنَافِلُ  
والنيلُ يَجْرِي حَيْثُ سَارَ عَلَيْهِ مِنْ  
وَكأنْ طَيِّبَةً وَالْهَيَا كُلُّ حَوْلَهَا  
يشدو بذكرك شَيْخُهَا وَرَضِيْعُهَا  
في كل يومٍ يَسْتَطِيرُ جَنَائِهِمْ

تَعُولُهَا الْآمَادُ فَهِيَ مَبْسَاءُ  
بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَانْطَوَتْ أَنْسَاءُ  
تلك الدِّيَارِ وَها هنا الْقُدَمَاءُ  
ورضاك أكبرُ ما ابْتَغَى الْأَمْراءُ  
فيهم وما لم تَقْضِ فَهُوَ هَبْسَاءُ  
أَجْنَادِ عَصْرِكَ عَصْبَةُ زَهْرَاءُ  
ملءِ الْفَضَاءِ أَوَاهِلُ شَمْسَاءُ  
وبحبك السَّادَاتُ وَالْوَضَعَاءُ  
نصر يزف ومنحسة غُمرَاءُ



لسمعت (بتاء وور) يُنشِدُ شعره  
ورأيتُ قصرَكَ في المدائنِ يحتمِي  
والقوم حولك خاشعون كأنهم  
تَلَقَّيَ الوفود العائدين وكلُّهم  
ثم انتهت كأنمسا هي في الكرى  
فبكيتُ مصرَ وهل يفيدُ إذا جرى  
وهي طبقة من المدح لم يبلغها في شعره حاكم في عصره ، وهو دليل  
صدقه النفسي والفني . ومصر الفرعونية لم تبرح منه الفكر والقلب حتى  
في أطلال بعلبك التي خاطبها بقوله :

آتاك من الوادي الذي في ضيقه تسامى (لآمون) البناء المدعّم  
يُحييكَ عن (آمون) في مستقره وأنت المحيى باسمه والمُسَلَّم  
على أن العقاد في كتابه (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي)  
قال كلمته في المدح ومقايسه والذي يعتقدُه (إن شعر المديح من أفضل  
المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأديب في وقت واحد . فيخطيء  
من يظن أن الأمم المتقدمة لا تمدح أولاً تقبل المدح من شعرائها . إنه المديح  
جائز في كل أمة ومن كل شاعر ، فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ  
القصيد في مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ، ولا ضير على الأدب  
أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التي يعرفها الغربيون أو  
الشرقيون . وإنما الخلاف في نوع المديح لا في موضوعه على إطلاقه



فمديح الأمم المتعلمة غير مديح الأمم الجاهلة ، والشاعر الذى يملك أمره يتبع فى مدحه أسلوباً غير الذى يتبعه شاعر مغلوب على أمره ، ومكانة الأديب فى الأمة تظهر أتم الظهور من أساليب الشعراء فى هاتين الحالتين ، فلن يقال إن للأديب مكاناً فى الأمة والشاعر مضطر فيها إلى إذلال عقله وتسخير كرامته فى مديح لا تسيغه العقول ولا يليق بالرجل الحر المرید لما يقول ، ولن يقال إن الأمة متعلمة والمبالغات الشعرية فيها تؤخذ مأخذ الجحد والوقار ، وهى أقرب إلى الهزل والهجاء المستور ، أولن يقال إن الأمة حرة تشعر بوجودها وأنت تقرأ مدائح شعرائها فلا ترى فيها ذكراً لغير الرؤساء ، ولا ترى فى الصفات التى يمدحون بها صفة ترجع إلى الأمة وتعتمد على تقديرها أو تستفاد من خدمتها والعمل بمشيئتها (١) .

شعر العقاد فيه إنسانية حتى فى وصف الأشياء فنور المنار (أرق يقلب مقلتي ولان ) ووميضه على البحر أفكار وأشجان وهو (كالييت يجمع بعد شتيت النوى : شمل الأحبة فيه والإخوان) .

وهو إنسان حين يودع شعره التجارب الإنسانية وآلام الإنسان تحت وطأة كل الظروف ، وآماله وغروره وأوهامه ومطامعه .

قصيدة الشاعر الأعمى فيها عذاب إنسان محروم من النور الذى يجود به الأفق لعين الذئب فلا يرى جمال العيون فى المها ولكنه يرى لحمها والشحم ، ولا يرى در الجيد فى الغيد كالجوهر ولكنه يرى الدم عالقاً بالمخالب . ويلمح قلبه البثر عميقة القرار لا حاجة بها إلى النور الذى تهدره



الشمس فيها أو تريقه فوق الرمال . وتبلغ المأساة قممها في هذا البيت  
ينفثه الشاعر الحزين :

وهل كنتُ أخشى الموتَ إلا لأنه سيمحِبُ عنيَّ حسنَ تلكَ المناظرِ (١)  
إنسان وهو يعيش تجربة العذاب الهرم الذي بهم ويعيه التهوؤ  
فيجثم في عجز يعمق خطوطه ترنيق العرصور وصياح القطا . لكأنه طريد  
السما كما طرد إبليس من الجنة .

إغفائه فرعة خائف ، وضمضته حلم ماض ذهبي ولن يعود . وتأني  
اللغة الإنسانية الكبيرة في هذا البيت :

لعينك يا شيخَ الطيورِ مهابةٌ يفرُّ بناتُ الطَّسِيرِ عنها ويَهْزُمُ  
مع كل هذا العجز والضعف يشفع الماضي القوي الجسور . إذن لن  
تذهب سابقات الأعمال وإن أتت من طائر . لكل كائن ما قدم بين يديه .

\* \* \*

وهو يألم للضعف الإنساني الذي يغافل الضمير الحي فينسى اليهود  
ويجحد الجميل . وتعمق خطوط الصورة في مقطوعته ( خمارويه وحارسه ) -  
مشيراً إلى قصة الأسد الذي كان يحرس خمارويه - بالمقارنة بين الأسد  
والإنسان :

أليسَ من العجائبِ أنْ لَيْسَ	يَدُودُ رَعِيَّةَ عَمَّنْ رجاها ؟
وأنْ يَحْمِيَ ابنَ آدَمَ من أخيه	سِيَّاحٌ جَلَّ أنْ يُدْعَى أخاهُها
وَيُثَقِّلَ بِذِي حِفَاظِهِ لَيْسَ بِسَرِيحٍ	ولا يَنْسَى الحقَّسوقَ لمن جباها

( ١ ) بقطة الصباح .



وهم قسبلوك حين وثقت منهم  
ولسو شهد اغتيالك في دمشق  
وكم حفظ العهد فما اعتداها  
لضرح بالجناية من جناها (١)  
تجربة لعلها واحدة من تجارب كثيرة جعلته يتساءل في الديوان نفسه :  
أين الحقيقة ؟ ولم ينتظر الجواب بل أودعه في هذه الأبيات :

أين الحقيقة ؟ لا حقيـ	سقة كل ما زعموا كلام
الناس غرق في الهوى	لم ينج غر أو إمام
إن الحقيقة غسادة	كالغيد يضمها اللثام
كل يهم بها فـإن	لاحت لهم صدوا وهاموا
كم أشرف الحق الصر	اح فأعرضت عنه الأنام
والناس لو تدرى خفا	فيس يطيب لها الظلام
لا حق إلا أنسه	لا حق في الدنيا يـرام

شعره فيه أبعاد وأعماق :

وهو لا يعنى نفسه من التأمل والتعمق حتى في حضرة الجمال الذي  
( يقف عليه تحيته وحياته ) فما يلبث أن يخاطبه :  
أوتيت من حسن الشائل نعمة  
هو جوهر يجني عليك وميضه  
والحسن يغشقه الكريم وربما  
كالبلدر ياتم السراة بنوره  
والحسن في الدنيا من الآفات  
عدوان سراق وحقد عفاة  
أضرى لثم النفس بالزعات  
ولقد يضيء مواقع الشبهات (٢)

( ١ ) بقطة الصباح .

( ٢ ) بقطة الصباح ص ٣٢ .







لو كان ما وعدوا من الجنّات في هذى الحياة لسرهم من يكفر  
كما سخر من المقادير التي ترزق الغنى بغير حساب ، الفصاحة والحب  
والغفران والسيادة وخدمة الناس .

### وسخر من تقوى المشيب :

أبعد الشيب ترغب في الصلاح وترهد في المدامة والمسالح  
قرغت من الحياة فأنت ترجو حياة في الفرديس الفساح  
رجعت عن الحرام فأنت عندي عمزت عن المحرم والمباح  
فما تقوى الشيوخ سوى اضطرار كتنقوى اللص بات بلا سلاح  
يقظة الصباح

وأجرى المقادير في ديوانه ( وهج الظهيرة ) حواراً طريفاً بين المعري وابنه  
بالغيّب نابعاً من بيت أبي العلاء :

وإذا أردتم بالبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأظهر  
يا أبي طال في الظلام قعودي فمضى أنت مخرجي للسجود ؟  
طال شوقي إليك فاحل قعودي

يا أبي عالم الظلام مخيف ليس يقوى عليه طفل ضعيف  
فأجزني من ظله المسدود

ما الوجه الجسان ؟ ما التوار ما الدراري ؟ ما الفلا ؟ ما البحار ؟  
إن دأب الوليد حب الجديد

لي جدود وليس لي أبسوان ولئن شئت أن فيكم أواني  
وتعليت قسمتي في الوجود



ولكن أباه . . . أو أبا العلاء يقنعه بآرائه المعروفة . واقتنع الصغير واكتفى بالانتظار حتى التفتيا في اللحد .

وفي شعره عنصر الفكاهة . والفكاهة من أخص خصائص الإنسانية حتى يعرف البعض الإنسان بأنه حيوان ضاحك .

أفغنى إليه صديق بأن كلبته ولدت فقال يبارك للنساء ويحيى المولود :

أعطيني (يا فلورة) الأفراحا	وأملئي الأرض والسماء نباحا
ما حبي الدهر بنت كلب بأعلى	من ذراريلك عنصراً ولقاحا
أبشيري دولة الكلاب ببحرو	سوف ينفي عن جيله الأتراحا
ما تقضى الأسبوع إلا تمشي	يلدع الدار جيئة ورواحا

ويرمز ويسخر سخرية ملفوفة :

سوف يُدعى على الكلاب أميراً	يُفزع الأسد وثبة وصياحاً
يلبس الطوق من نضار ودر	ويحول الخسر الثمين وشاحاً

ويعود إلى مدح وليد (فلوره) وهو المترفع عن المدح حفاظاً على كرامته :

ما مدحت الأنسام يوماً وإني	لست آلوك يا كليب امتداحاً
أعجم الناس في السوداد ومازا	ل بنو الكلب في الوداد فصاحاً
إن عي اللسان خير من النط	ق إذا كان للأذاق سلاحاً
سعار الكلاب أهون شراً	من سعار يمزق الأرواحاً

يقظة الصباح

وحديثه عن وفاء الكلاب يذكرنا بحزنه على كلبه (بيجو) الذي بلغ فيه أعلى درجات الإنسانية حين يسع عطفها كل شيء وتتجاوب مع الحيوان



حزناً عليه كلما لاح لي  
بالليل في ناحية المنزل  
مُسامري حيناً ومُستقبلي  
وسابقي حيناً إلى مدخلي  
كَأنه يعلم وقت الرجوع

\* \* \*

حزني عليه كلما عزّ لي  
صدقُ ذوى الأبواب والألسُن  
وكلما فوجئت في مَآمَنِي  
وكلما اطمأنتُ في سَكَنِي  
مستغنياً . أو غانياً بالقنسوع

\* \* \*

أبكىك . أبكىك وقلل الجزاء  
يا واهبَ الود بمحض السخاء  
يكذب من قال طعماً وماءً  
لوصح هذا ما محضتُ الوفاء  
لغائب عنك وطفلي (ضيق) (١)

---

(١) أعاصير مغرب .



ومن الفكاهة صورة غير عابرة رسمها لعسكري المرور في ديوانه ( عابر

سبيل ) :

متحكم في السراكين	وما له أبداً ركوبه
لهم المثوبة من ينسا	نك حين تأمر والعقوبه
مر ما بدالك في الطريق	ورض على مهل شعوبه
أنا ثائر أبداً ومسا	في تسورتي أبداً صعوبه
أنا راكب رجل فـلا	أمر على ولا ضريبه

\* \* \*

وكذلك راكب رأسه في هذه الدنيا العجيبة

\* \* \*

حتى في الفكاهة لا ينسى ( الحرية ) أو النفرة من الأوامر والنواهي .

ومن مداعباته الفكاهة لأصدقائه ، قصيدته عن كلب الشاعر طاهر الجبلأوى :

حزناً على كلب طاهر	فإنه طاهر الكلاب
تشابهها في خلقه	واتفقا ، شيمة الصحاب
وربما عني طاهر	وكلبه حاضر الجواب
فليس يوفيه حق نفسه	من اكتساب أو انتحاب
إلا إذا بات نائحاً	نبع المساعير في الخراب
عوعو ، عوووبلا وئي	ولا انقطاع ولا اقتضاب
لا تسألوا رحمة له	قد رحم الله واستجاب



لعلّه مات قانطراً من (أزمة) الأكل والشراب  
أراحه الله من ضيق أنقذه القبر من عذاب  
وشاعر آخر . . . كان العقاد يوفد عنه الشاعر العوضى الوكيل في  
المآدب . فكتب مرة إلى الأستاذ إبراهيم الدسوقي أباطة باشا يؤكد (توكيله)  
للعوضى الوكيل في (التأكيل) .

يا مُطعِمَ الأدباء من	خير اللِّبائِحِ والبُقُولِ
ما طاب من ضأنٍ ومن	طيرٍ ، ومن عدس وفول
«عوضى الوكيل» إذا دعو	تُم دعوةً عوضى الوكيل
عوض إذا ما شتم	عنى وأكال أكيل
بين المؤكِّل والمؤكَّل	ل ، فاز بالغنم الأصيل

أنا هنا لا أتكلّم عن شعر العقاد من الناحية الفنية فإنما يعينى هنا الناحية  
الإنسانية وحدها لارتباطها بموضوعي وتعميقها له . وإلا دخلت في مناقشة  
(ديوانية) عن الشكل ، (القافية) حين عانيت بالموضوع ، ومناقشة  
لغوية عن اللفظ ، حين احتضلت بالمضمون - وعلى ذكر اللفظ حفل شعر  
العقاد في شبابه بالألفاظ اللغوية وكأنها معرض لمصولة منها. وحفل تبعاً  
لهذا بالهوامش والشروح - وعادة التكثر باللفظ يبدو أنها لازمة للأديب  
في مطلع حياته الأدبية .

\* \* \*

وبعد ، فهذه لمحة من شعر العقاد الإنسان أو إنسانية العقاد الشاعر .



## الفصل السادس

### العقاد يترجم للعقاد

تبدأ القصة في سنة ١٩٤٦ .

قال العقاد رداً على أمل أن يكتب كتاباً في حياته ( سأكتب هذا الكتاب وسيكون عنوانه « عني » سيتناول حياتي من جانبيين : الأولى حياتي الشخصية بما فيها من صفاتي وخصائصي ونشأتي وتربيتي البيتية والفكرية ، وآمالي وأهداقي، وما تأثرت به من بيئة وأساتذة وأصدقاء، وما طبع أو انطبع في نفسي من إيمان وعقيدة ومبادئ . أو بعبارة أخرى : ( « عباس العقاد الإنسان » الذي أعرفه أنا وحدي ، لا عباس العقاد كما يعرفه الناس ، ولا عباس العقاد كما خلقه الله .

والجانب الثاني : حياتي الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولي من الناس أو بالأحداث التي مرت وعشت فيها أو عشت معها ، وخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما عشت فيها ، أو بعبارة أخرى « حياة قلمي » (١) .

أما الجزء الأول من الكتاب الذي كان مأمولاً فقد تكفل به أو ببعضه كتاب ( أنا ) الذي جمعه من مقالاته المتفرقة الأستاذ طاهر الطناحي بل أعطاه العنوان .

---

( ١ ) كتاب ( أنا ) .



أما الجزء الثاني من الكتاب فقد تكفل ببعضه كتاب : حياة قلم .  
وما زالت حياة العقاد موضوعاً خصباً لكثير من الكتب والدراسات .  
ترجم العقاد لنفسه في كتابيه ( حياة قلم ) و ( أنا ) - وحسناً فعل أو فعل  
الذين رغبوه في الكتابة عن تاريخه أو تاريخنا في سبعين سنة حافلة بالأحداث .  
ففي هذه الترجمة صور مدينة أسوان في أواخر القرن التاسع عشر وصفاً  
تفصيلياً لم يخطئ حتى اللغات المفضلة عند الأطفال . . .

تكلم عن مدارس الصحافة وأولها مدرسة عبد الله النديم التي نشأ فيها  
مصطفى كامل ، وإن كان العقاد نفسه ليس من تلاميذها بل لقد عارضه  
في طفولته الباكرة - كان تلميذاً في الثانية عشرة - حين أنشأ من قصاصات  
الورق ، ( لا مراكب ) للأطفال ولكن مجلة يعارض بها مجلة ( الأستاذ )  
لعبد الله النديم .

حتى الاسم عارضه الطفل عباس فسمى مجلته ( التلميذ ) . وصادقت  
كلمة أمهات مدينتنا أسوان التي كن يرددنها لأطفالهن كلما أصابهم ما  
يسوءهم من التورط في المزاح معه وراء الحد الذي يسيغه . فإذا ذهبوا إلى  
أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب :  
« أمزح مع من شئت يا بني . . ولكن . . كل الناس ولا عباس » .

ومن الطريف أن صحيفة العقاد أو مجلته المخطوطة ( التلميذ ) لم  
يصدر منها غير بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائه في المدرسة  
وأقاربه المشجعين أو المتتدرين المتفكرين . ولم يكن لها من اشتراك غير  
تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن .



ولكنها تركت آثارها في نفسه طويلاً بل حددت وجهته فعرف بعدها أنه ليس للجندية ولا للزراعة كما كان يحسب في سن الأخيلة والأوهام والأحلام . . إنها صناعة القلم لا غيرها . . وما أمنية الجندية وعلوم الزراعة إلا ( ترجمة لأمنية الكتابة مستعادة في صورة من صور الصناعات الأخرى ، وبخاصة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء ) (١) .

وقد باعد بين العقاد وعبد الله النديم - على الرغم من وجوه شبه ظاهر بينهما - سيان : أحدهما يرجع إلى الأحوال العامة والآخر يرجع إلى المزاج الشخصي الذي فطر عليه .

ثم هناك طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه . فقد كان عصرًا لا يسمح للمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة في كل بقعة من بقاع البلاد المصرية . . لأنه كان عصرًا مزيجاً مضطرباً بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقته من التفكير الحديث .

(كان عصرنا « برج بابل » بينى ويعاد بناؤه بين عام وعام . كنا نعيش في عصر الجهاد الوطني على مذاهب ، ونعيش في عصر التجديد الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهباً واحداً في قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات ) (٢) .

(١) حياة قلم ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .



حين أرخ العقاد لقلمه تناول بهذا القلم موضوعات كبيرة فتاريخ الصحف وأصحابها .

والصحافة قبل خمسين سنة أى فى أوائل القرن العشرين .

تحدث العقاد حديث العيان والتجربة عن ( حق الصحافة )

و ( عدة الشغل ) و ( التوزيع ) و ( المعلمين ) . المسيطرين على التوزيع - والإعلانات و ( الإعلانات السرية ) ، و ( أسعار الرتب ) .

تكلم عن ( الصحافة اليومية ) و ( غير اليومية ) وعن وسائلها المشروعة وغير المشروعة ، تكلم عن مكاتب التحرير بين العتبة والقجالة .

وكم من مضحكات مبكيات يرويها العقاد فى سياق هذا الحديث أو البحث الدارس ، كتمن الفخر والثناء وطبقة المأجورين .

ومع هذا كله يرى أن الصحافة فى أوائل القرن العشرين قد أصبحت ( هامة ) ولم تصبح ( عامة ) إلا بعد حين .

وإلى هذه الظاهرة يعزو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة - بمقاييس المجتمع - وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس .

( وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة - يومية وغير يومية - عارضاً غريباً على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لأنهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها . فربما سمى الكاتب فى الصحيفة بالتحريرجى ، أو الجورنالجى ، أو الغازيتجى ، أو المحرر من صناعة التحرير فى المطابع والدواوين التى



تكتب فيها الرسائل . . فأما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالتجارة والحدادة والملاحة والنجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمستول . . . (١).

ولكن هذا « العرض » لا يتركه العقاد بغير تعليل بل يفرض كمادته وراء السطح أو ( الظاهر ) إلى الأعماق البعيدة فيرى ( للصحفي في المجتمع المصري أب واحد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته هو . . . اللبيب . . . اللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصغى إليه المتعلم المستفيد كما يصغى إليه « الفهم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة .

والليبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثرة » أو « الأدبائي » الذي يفهم بالإشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في سبيله من الزرابة والابتذال . . .

الليبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على أسوئه وأدناؤه على أحسنه وأعلاه (٢).

أما عن الجزء الأول فيقول العقاد :

( إني لا أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما خلقه الله .

(١) حياة قلم ط ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .



فالله جل جلاله هو الأول بأن يسأل عن ذلك .  
ولن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما يراه الناس  
فالناس هم المسئولون عن ذلك .  
ولكننى سأحدث عن عباس العقاد كما أراه .  
وعباس العقاد كما أراه - بالاختصار - هو شيء آخر مختلف كل  
الاختلاف عن الشخص الذى يراه الكثيرون ، من الأصدقاء أو من  
الأعداء . هو شخص أستغربه كل الاستغراب حين أسمعه يصفونه  
أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لى فى أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن  
إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة فى مكان .  
فأضحك بينى وبين نفسى وأقول : ويل للتاريخ من المؤرخين .  
فعباس العقاد هو فى رأى بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن  
النية هو رجل مفرط الكبرياء .  
ورجل مفرط القسوة والجفاء .  
ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يياشر الحياة كما يياشرها سائر الناس .  
ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .  
ورجل يصبح ويمسى فى الجلد الصارم فلا تفتقر شفتاه بضحكة واحدة  
إلا بعد استغفار . . . واغتصاب .  
هذا هو عباس العقاد فى رأى بعض الناس .  
وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل  
لا أعرفه ولا رأيته ولا عشت معه لحظة واحدة ولا التقيت به فى طريق .



ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيض ذلك هو رجل مفروط في التواضع ، ورجل مفروط في الرحمة واللين ، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، رجل لا يفلت لحظة واحدة في ليلة ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ، ورجل وسع شذواه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابلن جميعاً .

وبين هذا وذاك رسم العقاد بنفسه صورته الصحيحة :

إننى لا أزعم أننى مفروط في التواضع .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل إنساناً قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان كما حاربت هتلر ونابليون وآخرين .

وأننى لا أزعم أننى مفروط في الرقة واللين .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجازف بحياتي ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف .

فعندما كنت في سجن مصر رجوت الطيب أن يختار لي وقتاً للرياضة غير الوقت الذي تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطيب ، وظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب وقال لي في صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد



« الجبار » . والجبروت تنبأ به محمد عبده في طفولته ووصفه به سعد زغلول في رجولته وقد يبدو من الغريب أن تقرر الطفولة بالجبروت ولكن أحداث طفولة العقاد تنفي الغرابة وتؤكد غيرها .

ومثل من أمثلة أنه كان تلميذاً صيياً بمدرسة أسوان في العهد الذي كانت المفاضلة بين شئين هي المحور الغالب على موضوعات الإنشاء في أيامه بمدرسة أسوان . فكان من عرام شخصيته يختار أضعف الجانبين حتى اختار الجهل مرة في مفاضلة بينه وبين العلم ! وهو الذي كانت أول قصيدة نظمها في حياته - كان وقتئذ في التاسعة من عمره - قصيدة مدح بها العلوم ومن قوله فيها :

علم الحساب له مزايا جمّة	وبه يزيد المرء في العرفان
والنحو قنطرة العلوم جميعها	ومبين غامضها وخير لسان
وكذلك الجغرافية تهدي الفتى	لمسالك البلدان والوديان
وإذا عرفت لسان قوم يا فتى	نلت الأمان به وأى يسان

المسألة إذن شدة إحساس بالقدرة وطاقه التفوق بغير معين .

ومن كتاب ( أنا ) نتأمل لمحات من شخصية العقاد .

لم يكن العقاد يتشاهم من شيء في الحياة بل كان يتحدث الشؤم في كل صورة من الصور التي اصطلاح الناس عليها ، فاحتفظ فوق مكتبه بتمثال للبوثة المضطهدة المرمية بالشؤم ، واتخذ داراً برقم ١٣ المزعوم نحسه ، حتى حين قرر بناء منزله بأسوان شرع فيه يوم ١٣ مارس وقسم كتبه ١٣ قسماً وكتب عن ابن الرومي المقرون بالشؤم .



ومن الغريب حقاً أنه دفن في أسوان يوم ١٣ مارس .  
فهل أثبت الرقم المشوم وجوده آخر المطاف ؟

• • •

يقول لودفيج في معرض حديثه عن نابليون .  
( إذا أردنا أن نصور حياة حافلة كحياة هذا الرجل لم يكن لنا بد  
من أن نصبغها بألوانه ، فلا غنى للكاتب عن الرجوع إلى كلام صاحب  
الترجمة ولا خوف من الإفراط في هذا الصدد مهما أفرط ، إذ الواقع أن  
كل إنسان أقدر على شرح نفسه من أى إنسان غيره )<sup>(١)</sup> .  
ومن هنا نستطيع أن نعتمد على كتاب العقاد ( أنا ) في التعريف إليه  
أو التحدث عنه أو الترجمة له ولو من باب تفصيل المفضل أو توضيح  
التوضيح كما يقول النحاة . . .

ومن كتاب ( أنا ) : ( لم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال  
ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء بل شعرت كثيراً  
بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات . .  
وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر  
المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وإن البطل الذى يخوض الحرب  
ذوداً عن الحق والعقيدة أكرم جداً من كل بطل يقتحم الحروب ليقال  
إنه دوح الأمم وفتح البلدان )<sup>(٢)</sup> .

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .



لأنه كان في نفسه ، وبنفسه ، أغنى الأغنياء ، وغنياً عن الأغنياء .

\* \* \*

وكان العقاد القوي ، قوي الشخصية وقوي الحجة وقوي الإعجاب وقوي الخصومة ، أضعف الناس أمام ضحايا الألم والقهر. فقد وقع نظره أثناء سجنه يوماً على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين . . فعاد إلى مكانه في السجن باكياً ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها وظلت صورة الدم على ظهر السجين تخاليل عينيه ، واستمرت أنات الرجل تدوى في أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنباً يستحق عليه العذاب .

هذا هو العقاد الذي قال من جهلوه إنه قاس لأنه لا يرحم ضعفهم الفنى ، حين رق ورحم وشجى أمام كل ضعف سواه .

\* \* \*

كان عزيزاً حتى فيما لا حيلة فيه ولا مجال لكرامة أن تختار . ومن هذا إيثاره الموت نفسه على المرض لو جاز أن يسلك الموت فيما يستحق الإيثار . ومن قوله في هذا :

( إذا فاجأني الموت في وقت من الأوقات ، فإننى أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مذل لا يحتمل لكن الموت ينهى كل شيء ) .

حتى في المواقف التي يجنح فيها الفرد إلى المداينة والملاينة تنلغ شخصية



العقاد تجاهر بالرأى الصريح . . والصحيح . . مسقطه من اعتبارها حساب المكسب والخسارة في هذا الاختيار .

ومن هذا أن العقاد أيام البرلمان كان يعلن في كل دائرة تقدم فيها أنه لن يقبل الوساطة في مسألة شخصية ، إلا أن تكون تقريراً لحق أو دفعاً لمظلمة . شخصية لها عرام . لقد أقسم ( العقاد ) لزعيم الوفد في أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذي كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالإسكندرية - ألا ينتهي هذا القلم حتى تنتهي وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يمضي اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦ م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالإقالة وتولت الحكم بعدها وزارة ( على ماهر باشا )<sup>(١)</sup> .

دائماً اعتزازه بالقلم مع سائر الأحكام ، فمنذ حمله إلى أن ودعه قبل سفره إلى أسوان للمرة الأخيرة ، لم يمالي حاكماً قط ولم يدهن حاكماً قط . إن أقصى ما بطمع فيه الحاكم المستبد ، أو بطمح إليه ، من العقاد : السكوت . وإنه لأمنية الحاكمين من صاحب الرأى الحر والقلم الجهير

وفي باب الأنفة تروى عن العقاد هذه القصة :

كان فريق من كبار رجال الصحافة أعضاء في مجلس الشيوخ . وأريد الإنعام عليهم بالباشوية ، لكن لما كان القانون يحرم الإنعام برتب أو نياشين على أعضاء البرلمان ، اشترط عليهم أن يستقيلوا من المجلس ليظفروا بالإنعام

( ١ ) حياة قلم ص ١٨ .



السامى ثم يعاد تعيينهم فى المجلس !  
 قبلت الأغلبية الاستقالة من عضوية المجلس لتظفر بالباشوية ومنهم  
 خليل ثابت وأنطون الجميل وآخرون .

عضو واحد فقط رفض الباشوية . . هو العقاد !

وحدث عقب الإفراج عن العقاد من السجن أن أوفد إليه القصر  
 من يعرض عليه منصب مدير الإدارة العربية فى القصر بكافة مزاياها فرفض .  
 ثم بعد فترة - عرض على العقاد منصب مدير دار الكتب فرفض .  
 وارتقى العرض إلى مدير الجامعة فرفض .

وفى عهد تال عرضت عليه الوزارة فى الائتلاف الدستورى السعدى  
 فرفض وقال إنه لا يرضى عن قلمه بديلاً !  
 ويروى عن الأستاذ العقاد أن أحمد حسين أبلغه أن ( فاروق ) أصدر  
 أمره بإعادة كتابة اسم العقاد فى جدول الانتخابات . وكانت الوزارة الوفدية  
 قد حذفته .

وفى كياسة رجل البلاط قال أحمد حسين : إن الملك يقدر العقاد  
 ويرى أنه كاتب كبير لا ينبغي إغفاله . . .

وينتظر أحمد حسين فى تشوف جواب العقاد على هذا « التقدير  
 الملكى » فيجيب العقاد ولكن بقوله :

إن قول فاروق إن عباس العقاد كاتب كبير شيء لا يقدم ولا يؤخر ،  
 أما أن يقول العقاد إن فاروق ملك كبير فشيء آخر ! وهو ما لم أقله حتى  
 الآن .



سئل العقاد يوماً لماذا هو ديمقراطي ؟ فأجاب : ( لأننى لست بالمدل  
ولست بالدليل ولست بالمؤمن بصلاحيّة الاستبداد فى جميع الأحوال . وهذه  
هى الأسباب التى تبغض إلى الاستبداد حيث كان ، وتحبب إلى الديمقراطية  
حيث كانت ولو كانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .  
فالحرية فى أقبح أوصافها خير من الاستبداد . وقد شبع العالم من  
عيوب الحكم المطلق ألوفاً بعد ألوف من السنين )<sup>(١)</sup> .

وكان سعد زغلول فى قمة زهوته يعمل للعقاد ألف حساب . ومن ذلك  
أنه كان لا يقترح عليه الكتابة أو الكف عنها . كان يتنسم رأيه بطرح  
الموضوع للمناقشة كمن يجس النبض فإذا وقف على رأيه ورآه يلتقى معه من  
تلقاء نفسه أفصح عن غرضه الحقيقى وتمنى عليه أن يعالج الموضوع .  
يرويها العقاد فى مجال ترحيبه بالاقتراح الأدبى يأتى من المجلات  
الأدبية وأصحابها لأنهم كما يقول أدرى بحاجة صحفهم إلى ألوان  
الموضوعات ، حين كان يرفض كل اقتراح سياسى بالكتابة فى مسألة من  
مسائل السياسة .

وقد فسر العقاد شبهة الكبرياء فإذا بها ترفع ، هو بعض وفائه للقيم  
الإنسانية ، وعطائه للحياة الأدبية ، وصنيعه لكرامة الأدب والأدباء .  
ومن اعترافات العقاد فى كتاب أنا :

( أعترف بأننى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هوربائى فى المتكلم  
وغفلة فى السامع . فإذا بنحسنى الباخسون حقاً فدعواى إذن أمام ضميرى



لا يزعمها إجماع الخافقين .

أعترف بأننى أحب الشهرة والخلود ، ولكننى أعترف كذلك بأننى لا أطلبهما بشئ يهين من كرامتى ، وأننى إذا أحسست أن إنساناً يمتن على بشهادة يبذلها أو شهادة يمنعها فلا نصيب له عندى غير التحدى الذى يذهب به إلى الحائط . ولتذهب الشهرة وليذهب الخلود معها إلى الشيطان (١) .

ألف تبلى به الألفة حد الضعف أمام العادة فلا يقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل . ومثل من أمثلة أن البيت الذى كان يسكنه قد تغير له أربعة ملاك وهو الساكن فيه لم يتغير .

وأنه كان فى مصر الجديدة ودكان حلاقه فى شارع محمد على لأنه من سنين كان يسكن هناك .

يلتقى عنده المحافظة والتجديد من أثر نشأته فى أسوان (وهى أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التى لا تبلى وهى فى الوقت نفسه مدينة أوربية فى الشتاء أو كانت كذلك يوم نشأ نشأته الأولى فأوربا كلها كانت تترامى هناك كل شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف أقوامها) (٢) .

وكذلك كان بيت العقاد بالقاهرة فيه أحدث كتاب وأحدث ما يعين على استجلاء فن كالتليفزيون . . . والريكوردر . وفيه أيضاً أقدم ما عرفت

(١) حياة قلم ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧ .



البيوت من آلات خارج دائرة الفنون .

أما بيته في أسوان فقد رأيت الحجرة الفسيحة التي كان العقاد يعقد بها ندواته في أسوان عصر الاثنين والجمعة من كل أسبوع . ورأيت المقعد الذي كان يجلس عليه والناس من حوله ، الواقفون يربون أضعافاً على الجالسين إلى جانبه والجالسين بين يديه . كان العقاد يحل بأسوان فما يكاد الناس يتسامعون بمقدمه حتى تتدفق جموعهم على مجلسه ، وتهرع وفودهم إلى داره فلا يبقى في الطابق السفلي موضع لقدم . . إنه ابن أسوان وأبوها فكل من فيها يدعوه « أبويا العجاذ » .

ورأيت حجرة العقاد الخاصة وقد ترك فيها كل شيء كما خلفه آخر مرة . . ملابسه معلقة وعصاه . . كل شيء يبدو منتظراً كأنه قادم إليه من القاهرة . وما درى أنه سافر منها إلى أسوان منذ أمد قريب . . بعيد . . والدور العلوي مخصص للعقاد حين كان يسافر إلى أسوان . وتستطيع أن تكتشف هذا بنفسك . فكل شيء مرتفع القامة مثله . رفوف الزجاج على الأحواض . . ومراياها . . الأزرار في الجدران . . الشاعرات ( المشاجب ) ، الأثاث ، حتى الأدوات ضخمة غير نظائرها عند الناس . . وابتسمت من بين دموعي . . لقد لحقت عملقته الأشياء التي تنتمي إليه . .

واستوقفني في بيت أسوان صور أسوان . . كل مغلف من معالم أسوان تضمه لوحة زيتية . فالخزان والمقياس وأنس الوجود وجزيرة النباتات . . إلى هذا الحد كان « أبويا العجاذ » متعلقاً بمسقط رأسه . كما كان مسقط رأسه متعلقاً به إذا أخذنا بدلالة الصور هنا . ففى كل حجرة صورة للعقاد



وفي كل ردة صورة . . للعقاد . . وكم من صورة رسمها له أو رسمه فيها الفنان صلاح طاهر ، إن مدرسة العقاد فيها الرسام كصلاح طاهر والموسيقى كالشجاعي أليست جامعة ؟

وبين الصور ، صورة كان العقاد يعتز بها . . صورة زيتية من رسم صلاح طاهر أيضاً . إنها صورة طفلة نائمة أناملها الصغيرة البضة تمسك أطراف الغطاء ودوائر شعرها المخمل تلتق على وسادتها البيضاء ظلالاً رقيقة مثلها ، ووجهها كله تغسل براءته وطهره بحرّاً من آثام العالم . . كان العقاد المهيب يحب الطفولة .

وقد سمعت قصة غريبة صحت أم لم تصح فإن لها دلالة كبيرة على أعماق . . صاحبها . . روى لي ابن أخيه أن العقاد رجع من جنازة ابنه صفية المازني وقد اتخذت صرامته قراراً لا يحيد كالعادة وهو ألا يتزوج لكي لا يقف هذا الموقف الجريح . . لكي لا تدفن نفسه نفسه . . لكي لا يوسد الثرى بضعة منه أو أعز شيء فيه . وظل فترة يردد : كيف أحتل المازني دفن ابنته ؟ كيف ؟ وكثيراً ما سئل العقاد عن سر عزوبته فكان يصنع للسائلين الجواب .

كان يحب الأطفال ( إنهم معلمون من الطراز الأول . . لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة في نفوسهم بالخط البارز الذي تقرأه لأول نظرة ، وهي في نفوس الكبار ضامرة أو مصحفة أو ملتبسة بوشى الرياء وزر كشة العرف وزخارف التكلف والتمويه .

إن معلمينا الصغار لا يكتبون شيئاً وكل ما كنموه أبرزوه وضاعفوا



إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئاً من علوم الكبار ولو كانوا من كبار العلماء (١) .

(وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ؛ لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ، ومقدار الرجاء في غدهم وغدهم طويل مفتوح لآمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهم مرضى على يدك تطالبك بالمعجزات وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذي ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، وبما زهدني في اقتناء المتعة النفيسة علمي بغلو الثمن ولا إخالني مع هذا نجوت مما ابتليت به في طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء (٢) .

فنان عاطفي حتى ليكيه الأداء المظن أو المشهد اللرامي ومن ذكرياته أنه بكى في أول فيلم أجنبي ناطق ، كان يمثل الممثل القديم ( آل جونسون ) . وكان مع آل جونسون طفل صغير يمثل دور الطفل الذي حرم من أمه وظل هدفاً للإهمال حتى مات .

بكى ولم يستطع النوم في تلك الليلة .

عاطفي يتعلق بوالدته حتى في شيخوخته واستغناؤه المفروغ منه عن

( ١ ) حياة قلم ص ١٧١ .

( ٢ ) حياة قلم ص ١٧٤ .



الرعاية والحدب . ولكنه كان أول ما فعله عندما يزور أسوان أن يهرع على أثر نزوله من القطار إلى غرفتها ويسكن إليها فلما توفيت لم يدخل غرفتها ما عاش كيلا يراها خالية منها .

إنه يذكرني بفريد الدين العطار الذي كان يقول عن أمه وهو وزير ( هذه السيدة التي هي أوهى من خيوط العنكبوت كانت لي حصناً ) .  
( حتى الشوارع التي كنت أغشاها مع صديقي المازني - رحمه الله - لم أستطع أن أغشاها بعد مماته . وصرت أتجنب ما يذكرني بفجيعتي فيه حتى لا أحزن من جديد 11 ) (١) .

فنان يستهويه الجمال . وللعقاد في وصف النهار والفرح بالنور كلمات ما كتبت عن العقاد مرة إلا تأقت نفسي إلى ترديدها .  
( كان النهار بساماً ، مدلاً بشمسه ، مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته في الأنظار وبهجته في الأرواح وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما يتوهج الوجه الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سوية من يوم . خلقاً مبتكراً يحيل إليك أنه يتلألأ في فضائه للمرة الأولى . . وهل هنالك فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء وفي أبعد فترة من الزمان ؟ ها هنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين ) (٢) .

---

( ١ ) حياة قلم ص ٣٨ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٢٧٧ .



وهو يحب النور كجيتي الذي مات ( وهو يطلب المزيد من النور ، كما يقول العقاد في كتابه عنه ، ويهتف بمن حوله وهو يجود بنفسه أن « افتحوا النافذة ليدخل النور » )<sup>(١)</sup>.

وكان للعقاد دستور حياة .

( فلي وقت للعمل ، ولي وقت للرياضة ، ولي يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولي مواعيد للطعام والنوم لا تختل في يوم ، ولي قاعدة هامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة وهي التوسط بين الإفراط . . والتفريط . )

ويراه الدكتور عثمان أمين متأثراً بكانط في نظريته المعرفة ومذهب الأخلاق . وما قاله العقاد في هذين لا يستلزم بالضرورة تبعية أو متابعة . فمذهب العقاد في الأخلاق كما يقول الدكتور عثمان أمين نفسه يعتمد ( على أخلاق الضمير والفطرة السليمة ، أخلاق الصراحة والوفاء والإخاء . ولاسيبيل إلى إنكار هذه الأخلاق ما دامت تعبر عن طبيعة الإنسان ووجوده ) . وقصة ابن طفيل « حي بن يقظان » تزكي اتجاه الفطرة السليمة في مسار خلق سليم بدون كانط أو نظريات .

أما عن علاقة الإنسان بالكون فإن الإسلام حددها حين قال بعد الدعوة الموسعة إلى التأمل والتفكير والتعلم : ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ) .  
إلا قليلاً

( ١ ) حياة قلم ص ٢٧٧ .



هنا الدقة تستريح .

في الأساطير الإسلامية أن الله أخبر موسى أنه وهب « الخضر » من  
لذنه علماً . فذهب موسى يبحث عن الخضر حتى وجده في كهف وأمامه  
شبه بركة صغيرة من الماء . وسأله موسى :

— هل أعطاك الله علماً ؟

— حمداً له في كل حال .

وفي هذه الأثناء حط طائر وحسا حسوة من الماء . وهنا التفت الخضر  
إلى موسى وقال له :

ما عندى من العلم في حجم ماملاً فم هذا الطائر من الماء .

والقصة ترمز إلى تواضع العالم الحق . . وإلى أن الإنسان مأوًى من العلم إلا  
قليلاً .

إن T. W. A. لا تقاس بالطائر الصغير المهاجر الذى يطير مسافات  
شامعة على جناحيه .

هذا هو معجزة القوة .

كم من ملايين الخلايا في جسم الإنسان تعمل بنظام محسوب ؟  
لقد استطاع الإنسان أن يصل إلى القمر ولكنه لم يستطع أن يخلق  
خلية حية .

ماهى الأرض التى يعيش عليها الإنسان ويتصارع فوقها ويزدهيه النهر  
في هذا الصراع ، إلى جانب الشمس ؟ ذرة من غبار في مدينة الشمس لو أن  
الشمس مدينة .



ما هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً بالنسبة إلى الله ؟  
حدث في الانتخابات الأمريكية أن سأل رجل ، عالماً من علماء الفضاء :  
هل هناك كواكب أخرى مثل الأرض ؟ وهل هناك شمس أخرى ؟ فقال  
العالم : نعم .

قال الرجل : إذن لا يهمني من الذى نجح أو سقط .  
والقصة من عالم الواقع ترمز إلى تهاوة الاهتمامات اليومية صغيرة أم كبيرة .  
إن إنسان العصر يتحدث كثيراً عن إنجازاته العلمية حتى سُمي عصره ،  
عصر التكنولوجيا . . . . هذا العصر نفسه له علامة أخرى : التلوث .  
هذا التلوث مؤشر يدعو الإنسان أن يخفف صلفه وغروره .  
لقد أبدع الإنسان الصناعة فلوث دخانها الجو .  
وفي الزراعة ، قاوم الآفات فلوث النبات .  
وفي التجارة لوث الأفكار بالإعلان .  
وفي السياسة ، لوث ضمير الإنسان ، وهدم القيم ، وخرّب البشر ، وقد  
آن الأوان لتنظيف بيته أى بيئته أى دنياه .

ليست دعوة ضد الصناعة والزراعة والتجارة . . .  
محال . . . ولكنها دعوة إلى الوعي بأنه مأوى من العلم إلا قليلاً . .  
ودعوة إلى الإيمان بأنه فوق كل ذى علم عليم ، وبأنه لم يخرق الأرض ولم يبلغ  
الجبال طولاً . . . وإلى أن هناك خالقاً أكبر وأقدر وأعلم وأحكم . . كل شيء  
عنده قدره تقديراً . . .

يقول الأستاذ العقاد : إن العقل لا يفهم حقيقة الشيء فى ذاته ، فليس



أمامنا إلا أن نفترض أحد فرضين ، فإما ألا يكون هناك حقيقة تفهم ، وإما أن العقل يضع نفسه في غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق ، فلم يبق غير أن العقل غير منوط بفهم كل صلة بين الإنسان وهذا الكون الذي نشأ منه ، وأن الصلة موجودة وإن لم تكن مفهولة .

إن الإيمان ليس الشهادتين . . إنه عملية صعبة . . إنه اتحاد بالكون . . استماع إلى المعزوفة الكبرى والمايسترو الأكبر والأقدر والأعظم .

وينفتح القلب ويشرب النعم  
وتتوهج الروح إذ تلمسها الشرارة المقدسة  
ويبصر الإنسان بعد أن رأى .

إن الحضارة هي وصول الذات إلى مرتقى عالٍ من التوحيد والتكامل ، ثم ممارستها الحياة انطلاقاً من هذا الأفق كالوردة الكونية . ولعلها سميت كذلك لأنها تمثل خروج النفس من القوضى الداخلية إلى كونية الكون . إن شدة اهتمام الغرب بعلم النفس مؤثر إلى معاناته النفسية من أمراض العصر . . من أمراض حضارته الصناعية العقلانية . . ولسنا ضد العقلانية ولكننا نؤمن بالتكامل . . أن يكون الإنسان عقله وقلبه وروحه وجسمه كلا واحداً لا يتجزأ .

يقول الأستاذ العقاد : لن توى الكون حق رؤيته وأنت تحاول الخروج منه ، والانفصال عنه ، إنما تدرك حقيقة الكون وأنت « بعضه » أي وأنت متأثر به مؤثر فيه ، متصل بكل ما فيه من سر وجهه وسرور وألم . . إنما تدرك



حقيقة الكون المقدورة لك ، وهو جسم حي يعاطفك وتعاطفه وتعطيه وتأخذ منه . ولن تدركها ألبتة وهو جثة ميتة على مائدة التشريح تُعْمَل فيها المبضع .  
وتهيتها للدفن في التراب . ]

وهكذا نرى العقاد المولع بالمعرفة في فروع شتى ، الموكل بالمنطق والقياس والتحديد العلمي ، مدركاً لجلال اللامحدود ، مؤمناً بخالق الكون الإيمان الواسع العميق البصير ، مسلماً حين يقرر محدودية العقل ، بأن الإنسان ما أوتي من العلم إلا قليلاً ، متكاملًا بالمعنى الحضاري للتكامل الذي يلتقي فيه العقل والقلب والرأى والضمير .

نعود إلى حديث العقاد :

( وقبل ذلك كله كانت لي شيخوخة في مقتبل الشباب .  
ولم يحل شبابي من الشيخوخة ، فمن الحق ألا تخلو شيخونتي من الشباب )<sup>(١)</sup> .

وحين ترهب في محراب الفكر وجد من يقلب الحسنة النادرة ، سيئة !  
فرغمه قوم زاهداً في الحياة .

وما أحب الكتب إلا لأنه يهوى الحياة مشغولاً بها صَباً ( إنني أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفيني . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة . ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد . ومهما ينتقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل في مكانين ، ولكنه يزداد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوانات في عمر واحد ،

( ١ ) حبة قلم ص ١٦٠ .



ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرأتين<sup>(١)</sup>.

ومن الطريف أنه حتى اللجنة لم يستطيع تصورها خالية من الكتب . فقد تخيل الأستاذ توفيق الحكيم في بعض كتبه ، العقاد وقد دخل اللجنة فلم يلبث أن أخذ يطوف بين أرجائها عسى أن يرى واجهة مكتبة يقف أمامها ويتأمل عناوين الكتب فيها ، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتاباً ضجر منها وطفق يقول : ما هذا ؟ جنة بغير كتب ؟ .

وهنا ابتسم العقاد أولعله ضحك ضحكته المجلجلة وقال : صديقنا الحكيم لم يبالغ في تخيله لأنني فعلاً لا أستطيع أن أعيش في جنة لا أطلع فيها وليس من الضروري أن أقرأ في كتاب . يقصد بالعين . . بالسمع . . بالشعور . . بالملاحظة . . بالتعمق . . بالاستشفاف . . وسائل كثيرة للاطلاع غير القراءة .

ويسأل العقاد كالمستغرب : لماذا لا نطلع في اللجنة ؟ يجب أن نطلع في اللجنة قبل غيرها لأن المكان الذي تسكنه وتحب أن تسكنه هو أحق الأمكنة أن نطلع عليه وتعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خوالج الغبطة والشوق والرغبة والاستطلاع .

يجب أن نطلع في اللجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفيها ومن حقها علينا أن نعرفها ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً ، وأن نحيط فيها بشعورنا

(١) المرجع نفسه ١١١ .



وشعور الآخرين الذين اختبروها غير خبرتنا وشهدوا منها غير ما شهدناه .  
 فإن لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب، فليكن الكتاب في الجنة .  
 ولا يعقل أن تنقص الجنة حيث تكمل المدن العامرة في هذه الدنيا<sup>(١)</sup> .  
 وفي حديثه عن مقاييس الشباب بين قائل بمقياس الشعور، وقائل  
 بمقياس القلب والهوى، وقائل بمقياس الهمة والطموح، كان المقياس الواحد  
 لدى العقاد الذي يقيس به جهوده في جميع أدوار حياته هو النهم إلى  
 المعرفة .

ولكن لا ضير فالعقاد نفسه كان لا يبالي بسخط الساخطين لأنه كان  
 يعلم ( أن خطأ الكثيرين جائز وأن سخرتهم لا تضير فلم أحفل بتلك  
 السخرية، ولعلّي بالغت في قلة الاحتفال بها ) « وأخذت راحتي » جداً في  
 بسط رجلي حيث أشاء<sup>(٢)</sup> .

وهو هنا يشير إلى قصة أبي حنيفة وكان كما قيل يبسط رجله في حلقة  
 الدرس لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من إعياء . فأقبل على  
 درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فثنى رجله  
 على ألم ثم أخذ في درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل :  
 ( وما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال أبو حنيفة : « العمل أن  
 أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله » ) .

وقف العقاد في حياته كالطود الأشم في وجه العواصف والرياح . ومن

( ١ ) حياة قلم ص ٥٩ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ١٣٨ - ١٣٩ .



التواصف ما حاول أن يسقى عليه التراب، أو يكيل له السباب، ولكنه في ثبات الراسخ الواثق من نفسه صدها بوقفته ، أوردتها خاتبة لمناعته . وفي كل مرة تسكن الضججات وتخفت الأصوات ليعلو صوته وحده ، حتى وهو في صمت الموت وهم في صخب الحياة !

لقد حارب العقاد الطغيان وحارب الفوضى .

لقد حارب رموس الأموال وحارب مذاهب الهدم والبغضاء .

لقد حارب التبشير وحارب التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين .

لقد حارب الجمود والرجعية ، وحارب الإنكار والجحود .

لقد حارب الأحزاب وحارب الملوك .

لقد حارب هتلر ونابليون وحارب المستعمرين في صفوف الديمقراطيين .

لقد حارب أعداء الأدب المسمى بالتقديم وحارب أصدقاء الأدب

المسمى بالجديد .

لقد حارب الصهيونية وحارب النازية أكبر أعداء الصهيونية .

لقد حارب جميع هؤلاء فالتقى على محاربتهم أناس من جميع هؤلاء

صهيوفاً إلى جانب نازي ، إلى جانب فوضوي ، إلى جانب رجعي إلى

جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعذبة باسم الدين ، إلى جانب

الماركسي من اليسار والمبشر من اليمين .

ولكن لا ضير مرة أخرى فقد كان العقاد يدعوا الله ألا يحرمه من عداوة

مدع أو دخيل على حرم المعرفة وحرمتها ، نكرانه للفضل على قدر شعوره

بعرفان غيره . . وكفرانه بالحق على قدر صواب الحق ، لا على قدر خطئه .



فإن الذى لا صواب له يكفى الحاقدين مشونة النعمة عليه، واللجاجة فى مذمة عمله وبخس جهوده واجتهاده<sup>(١)</sup> .

سئل العقاد : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟  
فكان جوابه : ( بلغت فيها أعتقد غاية ما استطاع فى بيئتنا العربية ولم أبلغ الغاية التى رسمتها أمامى فى مستقبل حياتي ولا قريباً من الغاية . وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة فى المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين )<sup>(٢)</sup> .

بعد كل هذا العطاء يرى العقاد أنه لم يبلغ العشرين أو الثلاثين فى المائة مما كان يصبو إليه . .

وسئل العقاد ما الذى يتمنى بعد السبعين .  
فكان جوابه ( لئن تمنيت شيئاً بعد السبعين لأتمنين أن أعيش فلا أعيش عبثاً ولا فضولاً ، وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام أحقاباً وأحقاباً إلى الأمام فيقول الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام فذلك هو العمر الذى أحسبه سلفاً وأعيشه قبل حينه فلا يكلفنى انتظاره إلى الختام )<sup>(٣)</sup> .

وكان له ما أراد فم يعيش يوماً واحداً عبثاً ، أو عبثاً ، ولم يعيش يوماً واحداً فضولاً .

غالبنا الردى فيه فانتزع منا والكتاب إلى جانبه ، والقلم إلى جانب

( ١ ) حبة قلم ص ١٦٧ . ( ٢ ) كتاب أنا ص ١٣ .

( ٣ ) كتاب أنا ص ٢٦٤ .



الكتاب . وعشنا بعده نردد اليوم ما كان يقوله قبل عشرات الأعوام . وسيظل هذا شأننا معه على الأيام . جيلنا على الأقل .

أقول غالنا الردى فيه لا تدبيج كاتب أو صناعة إنشاء ، ولكنى أقولها وبين يديّ خطاب أرسله مصرى بسيط من غمار الشعب ، إلى الأستاذ العقاد يقول فيه :

أنا الموقع أدناه ببصمة يدي وتوقيع يوسف السيد غانم بطاقتي الشخصية رقم ٦٧٢ كرموز .

قد تنازلت عن دمي الذي يجرى في عروقي تحت تصرف الأستاذ عباس محمود العقاد وليس بكثير أن أتنازل عن حياتي لأننا جميعاً مدينون لك بحياتنا ) .

(إمضاء)

وقيمة هذه الكلمة المخلصة الطيبة تكمن في صدورها عن أحد أفراد هذا الشعب النبيل . . في صدورها عن رجل بسيط لا يبغي بها منفعة أو جاهاً أو مالاً . . وهل كان العقاد يملك هذا ليعطيه ؟ إن أنزه الناس أولئك الذين يكبرون العقاد لأنهم يكبرونه باعتباره قيمة كبرى وحسب ، ومعنى جامعاً .

ووددت أن أرى المصرى الذى تقدم ليفتدى العقاد . وسافرت إلى الإسكندرية وراء دلالة من يكون .

وهناك دلتى عليه بسطاء آخرون من قومنا كرماء . فقد كانوا يعرفونه بحبه للعقاد . . . وآية هذا عندهم أن الرجل يكتب لهم العرائض . . أليس



هذا دليل فصاحة وإطلاع ؟

ما أطيبهم . . وما أحبهم إلى . .

وبلغت داره . . دار ؟ إنها لا تريد عن حجرة متواضعة .

وفي ركن من الحجرة الصغيرة منضدة خشب غطيت بورق الصحف  
رصت فوقها كتب الأستاذ العقاد وقد جلدت بجلد شعياً ولكنه يصور  
حفاوة صاحبه بصاحب هذه العبقريات .

أما مقالات العقاد فقد نسخها الرجل في كراسة وجمع كثيراً منها  
في ملف ! ! وأطلعني الرجل على كتابات أخرى صانها الرجل الطيب  
في حقبة صغيرة كتب عليها ( عباس محمود العقاد ) .

وصارحت الرجل بمهمتي فأخذ يتدفق في الكلام كمن يجد رضا نفسه  
ويسمع عن ظهر قلب محفوظاته من كتابات العقاد .

وتقطع زوجته حديثه في سداجة محبة من أمثالها وتقول كأنها تريد  
أن تعطيني بدورها إضافة جديدة :

- أتدري يا ابنتي أنه لم يستطع أحد أن يخبره بموت العقاد إلا أنا ؟  
رأيت أولادي جميعاً في ذهل لا يدرون كيف يلقون إليه بالنبا ولم أجد  
لي حيلة إلا الخروج من الكتان .

وأصغيت إليها أتعجل النتيجة التي لم تصل إليها ببراعتها إلا بعد  
استطرادات شتى كشأن بنات البلد .

- ماذا كان من شأنه يا أماء ؟

- لا أراك الله مكروهاً يا ابنتي . . ماذا أقول وماذا أدع لقد انكفأ



يبكى بكاءً مرًا .

وما يضحك التكللى قولها وهيتها وهى تستعيد قولها له :

- بتبكى ليه ؟

ويحها . . ألا تدرى .

- دعينى أبكيه . . ده اللى علمنى الغلبة والعرائض !

\* \* \*

هكذا كان البسطاء يتزلون العقاد من نفوسهم . فكيف يكون وفاء من علمهم معنى الحياة ومعنى الشرف ومعنى الكرامة ، كرامة الأديب وكرامة الإنسان ؟

ما أكثر ما صنع وما أقل ما صنعناه .

يقول العقاد فى تذكاري جيتى :

( من العبقرين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة لأنه يرتقى إلى أوجه فى بعض أعماله فيأتى بخير ما عنده أو بكل ما عنده . وتعرفه حق عرفانه فلا تحتاج إلى تجربة له بعدها ولا تصيب فى التجربة الجديدة إلا تكراراً لا جديد فيه .

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقرية فى كل جزء من كتاباته ، فبعضها لا يدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهى بك كل يوم إلى جديد ، فلا غنى لك عن التجربة لسر غورها والإحاطة بمداهم والحكم عليها فى جميع أحوالها .

وجيتى من هؤلاء العبقرين الذين لا ينهى قليلهم عن كثيرهم ، لأنه



لم يجمع نفسه في قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لا يدل على كل موضوعاته ، والجزء الصغير لا يدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هي أصغر من الرجل في جميع أفكاره ، كما أن اليوم الواحد في غمار أيامه هو أصغر لا محالة من سنه الثمانين ) .

والعقاد أيضاً من هؤلاء العبقريين لتنوع آثاره وموضوعات كتابته وكأنما هي كلها من باب ( الفصول ) في كتاب العقاد .  
وعن جيتي أيضاً يقول العقاد :

( كان جيتي يغبط صاحبه شيلر لموته في العقد الخامس من عمره ، فذكره أبدأ مقرونة بذكرى الشباب المحبوب والنضارة الموقدة .  
وقلما يصيب المرء في تمنيه ولو كان من الحكماء . فلو مات جيتي في سن صاحبه لضاع أكبر نصيبه من الشهرة وهبطت مكانته في عيون قومه وعيون سائر الأقوام ، لأن طول عمره أقامه في الأدب الألماني الحديث مقام الأبوة والرجحان ، وأتاح له أن يتم ما بدأه من الكتب في أوائل الحياة .  
لكنه كان يتمنى ذكرى الشباب على خطأ أو على صواب ، فعزاء له ولا ريب أن تضمه الأرض إليها وهي في نضرتها وأن تلف ذكره في أكفان ربيعها ، فقد مات في الثاني والعشرين من شهر مارس خاتمة الشتاء ، فلا يذكره اللاكرون إلا بدت إلى أذهانهم صور الربيع في مطلع وروده ورياحينه ١ ) .

ألم يكن هذا توقيت الحياة لوداع العقاد ؟



واستقبلته أسوان في الثاني عشر من شهر مارس حضارة حديثة، كما استقبلت من قديم الأزمان حضارتنا القديمة لتكون الأرض الواعدة والموعودة بالخلود .

سلام عليه .

وسلام عليها

منها خرج وفيها نشأ وإليها يعود .

وسوف يتسع العمران بأسوان ويزداد امتداداً . وسوف يقام فيها للصناعة صروح كثيرة . ولكن أعلى صروحها ، وأعلى ذخائرها ، سيظل ، عباس محمود العقاد بقدر ما تأصل في نفس الفنان من إعلاء للفكر ، وإجلال للعقل ، واحتفاء بالقلم ، وحب للفن ، وتقدير للعلم ، وولاء للموهبة ووفاء لصاحبها . سيتغير كل شيء في أسوان . الحياة والأفكار والمجتمع ومعالم المدينة حتى الجبال ، ويظل ثابتاً كالعهد به عباس محمود العقاد ، لأنه تاريخ والتاريخ دائم ، ولأنه فكر والفكر قائم ، ولأنه قلم والقلم سائر ، ولأنه عصامية من طراز نادر ، ولأنه موهبة على مستوى رفيع ، ولأنه جامعة ، ولأنه شرف لجيله ومفخرة مصرية لسائر الأجيال .

\* \* \*

وبعد ، للعقاد موقف تجاه النفس وتجاه الآخرين . . . إنسان ثرائه ليس خارجياً من ثقافة مكتسبة فحسب، ولكن داخلياً من مواهب الذات وقدراتها . شخص هو نفسه موضوع .

العقاد بما كتَبَ ، وبما كُتِبَ عنه ثراء أغنى المكتبة العربية. وسيظل



ينبغي لأن بصمات العقاد على عصره ، لا يستطيع إخفاها كاتب في الأدب أو النقد سواء وافق العقاد أو خالفه . . مال إليه أو مال عنه . لقد غدا جزءاً من نسيج شخصيتنا الفكرية . . وحسب المرء من وطنه أن يندوسمة من سماته ، أو قسمة من قسامته ، لا يخطئها عين القريب أو الغريب .

\* \* \*

بقيت كلمة : كان العقاد يبحث في شخصية شعب المترجم له تماماً كما يبحث في شخصية العظيم أو العبقري صاحب الترجمة . فلو طبقنا هذا المنهج في ترجمة العقاد وتساءلنا ما الذى أخذ العقاد من الشخصية المصرية ؟ وجدنا أكثر من نقطة التقاء . . . أخذ العقاد من مصر :

الشخصية المصرية كيفها النبات إلى حد كبير وإذا عرفت النفس المصرية الزراعة منذ القدم عرفت التجدد والتواء وشق الطريق كما تشق البذرة الأرض في إيمان ووثوق وهو ما فعله العقاد إذ زرع نفسه وشق طريقه . . . . .  
وكالبذرة عرف النضج المشغول على مهل . . كالنبات عرف العقاد العمق كالجدور الضاربة في الأرض ، والارتفاع كالجدوع الصاعدة في السماء . . .  
في مصر كل شيء باق ، مزروع أصلاً . . الفلاح يزرع في الوادى ، والراهب يزرع نفسه في الصحراء التى نشأت فيها الرهبنة المصرية بالقراءة والحكمة والنمو بالذات إلى أفق المعنى وسماوات الروح والفكر . لقد ابتدعت مصر الرهبنة في المسيحية ، كما وضعت أسس التصوف في الإسلام . . .  
وأخذ العقاد المخلود من مسيحية مصر وإسلامها معاً . فكما آوى آباء الكنيسة المصرية إلى الصحراء احتجاجاً على مجتمع المدينة في عهد الرومان ،



أخلد العقاد إلى بيته ومعبده ، حين تعب من الأحزاب والمعارك . وكما غدت  
الخلوة علامة في طبع مصر ، غدت الخلوة طابعاً في شخصية العقاد .

وكالراهب خلص العقاد للفن . . . . . وكالراهب زرع نفسه .

وكالمتصوف عكف العقاد على القلم ومن التصوف كل عكوف على  
عمل عظيم ، وإذا عرفت مصر الزراعة عرفت الأعماق والأشواق فارتفعت  
المسلات ثم المآذن طموحاً مشتاقاً يرتاد آفاقاً علوية ما تلبث أن تتجسد  
على الأرض عمائر ومنابر وعلوم وفنوناً وحكمة . . . . . وكم آفاقاً ارتادها طموح  
العقاد حتى ارتفع شخصاً ، وشخصية ، وكأن بداخله مسلة أو مثدنة من  
سراوة العمود وتكثيف المجهود وعمق المعنى والدلالة . . . . . إن حامل المؤهلات  
متعلم ولكن الثقافة شيء آخر جدد بعيد . الثقافة نمو النفس . . . . . خبرة مقطرة . .  
وفي العقاد من الشخصية المصرية ، المقاومة إلى حد الفداء إذا اعتقدت  
في شيء أنه الحق . . . . .

وفيه منها الاستعلاء على الأحداث .

وفيه منها طاقة التحدى . . . . .

وفيه منها حب الفكاهة التي تغسل بحراً من الآلام ، إن الدعابة  
المصرية فيها رقة وصفاء من أثر التاريخ الطويل في الحضارة ، فالعقاد  
الذي يحسبونه صارماً عابساً كان يهش للنسكة ويضحك لها ضحكة  
مجلجلة . . . . . ويرويها أحياناً كثيرة .

وهكذا تدخلت في صنعه البيئة واللحظة المعينة .

حتى الصعوبة التي ألهم بها العقاد وهي جدية ، صفة مصرية قديمة



عندما كانت حضارة مصر طرحها فينان . . فالنفس المصرية بعطائها نفس  
أرستقراطية لا بالمعنى المادى أى الثراء الفاحش ، ولكنها أرستقراطية بالثراء  
العريض فى الفن . . . فى الإدراك . . . فى الحكمة .

ومن العجيب أن غير العارفين بها حين يريدون الراحة . . السهولة . .  
يربطون الشعب بالعامية ، حتى يتخففوا هم أنفسهم من قيود الفن ومجاهداته .  
والعامية التى أقصدها ، العامية الفكرية لا لغة الحديث فإن لغة  
الشعب ، البعد عنها ، بُعد عن مواطن ومواطني الحكمة . . .

إن الفكرة الثابتة أو التسرع فى الحكم على الأعمال الفنية ، قتل . . .  
المتسرع قاتل للفنان وقاتل لنفسه أيضاً حين وكل لسانه بقطع رسائلها عنه . . .  
إن الثروة وإلقاء الأحكام بلا تثبت ، تزحم السكون بالفضوضاء فلا يسمع  
المشاهد ، الأصوات الدقيقة الهامسة الآتية من أعماق النفس متلاقية  
أو متوازية ولكنها متحابية . . .

وفى العقاد من الشخصية المصرية تمجيد البطولة والمثل الأعلى منذ  
تعلقت مصر بإيزيس . . وأوزوريس . . وحورس . . ثم الملوك والمعبودات  
المختلفة .

وشخصيات العقاد التى ترجم لها تمثل نواحي من قوة العقل . . قوة  
الروح . . قوة الخلق . . قوة المبدأ . . حتى قوة الشر ممثلة فى الشيطان .  
هل كانت كتابته عن العظماء صدى لإحساسه بالفرد أو بتفرده من باب  
جاذبية التشابه ؟

هل كانت كتابته عن الأبطال بتأثير عصر كان يتقدمه أفراد مميزون



تستوى زعامتهم الجموع فتسير خلفهم فى السياسة أو الفن على السواء ؟  
 قد يكون هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً ولكنه فى كل صورة يرجعها ينم عن  
 إيمان راجع بالإنسان وقدرته على الوصول إلى قمة . . . ولعل مقدمته لعبقريّة  
 محمد خير دليل . وكأنه توماس كارليل العرب .



### ترجمة حياة

الأستاذ عباس محمود العقاد ١٨٨٩ - ١٩٦٤

عصره - بيته - مولده - أبواه - أسوان -  
 طفولته - المرض - مقومات شخصيته  
 ( فرديته - عصاميته - ارتفاعه على  
 التقليد ) - حربه الشيوعية - ثورته على  
 الشعر العربي التقليدي - مقاييسه  
 الفنية - احترامه للإنسان - العقاد  
 وديوان الأوقاف - ساعات بين الكتب -  
 الإنسان الثاني - مجمع الأحياء - نفوره  
 من الوظائف - تحديه للاستعمار -  
 تاريخه معه - تاريخه في الصحافة -  
 تاريخه في التدريس - تاريخه السياسي -  
 حربه الملكية - سجنه - رفضه المناصب -  
 اللغات التي علمها نفسه - أسلوبه -  
 تعدد جوانبه ومواهبه - العقاد شاعراً -  
 العقاد كاتباً - لزاماته في الكتابة -  
 العقاد والمرأة - ظاهرة النور في أدبه .

قصدت بكتابي هذا عن رجل الفكر والأدب الأستاذ العقاد أن



يكون كتاب رأى . لهذا تأتى ترجمة حياته آخراً لا أولاً على عادة التراجم . . . .  
تأتى تطبيقاً أو تفسيراً لصفات رأيته فيها لا مقدمة لها . . . . إنها خطوط  
مكملة فى صورة العقاد الإنسان . . . . وكثيرون يتطلعون إلى مثل هذه  
الخطوط فى صورة كاتبهم المفضل أو قدوتهم المختارة بين نماذج البطولة  
والأبطال . . . .

وقد سبق أن رسمت له صورة قريبة من هذه عندما أصدرنا ، تلاميذه  
ومدرسته ، بمناسبة عيد السبعين ، كتاباً . وعنوانها فى ذلك الكتاب كان :  
( لمحات من حياة العقاد ) . وقد « لمحها » فى كتابتهم بعض من كتبوا عنه  
فى سلسلة اقرأ قبل هذا . . . . ويبدو أنهم نسوا الإشارة إليها كما نسوا الإشارة  
أيضاً إلى ما جاء بكتايبى ( قسم أدبية ) عن العقاد . ولهذا بحسن ورودها هنا  
ليعم الاطلاع عليها بما تتيحه هذه السلسلة من ذبوع القراءة وتعدد القارئين

\* \* \*

لقد رأى العقاد عظمة شكسبير أعجوبة خارقة ورآه كاتب الأعاجيب  
وإن لم يكن فى سيرته خبر غريب . ولكن العقاد أعجوبة خارقة فى سيرته  
وفى أعماله على السواء . فقد ولد شكسبير فى عصر يعين على نماء البلرة  
الكامنة فى صاحب الموهبة وازدهارها . كان عصر شكسبير فى إنجلترا عصر  
الفن والمسرح والغناء ، ولكن العقاد ولد فى عصر تكتنفه ، فى مصر ،  
الظلمات من كل ناحية . فى السياسة احتلال يكبل الحريات ، وفى الأدب  
عفن يجمد الأقلام ، وفى المجتمع ركود فى كل شيء تحتق فى العبقرية  
إلا إذا ظهرت من نفس صاحبها إرادة ماردة تتحدى وتتخطى وتستعلى على



الأحداث ، والناس ، واليأس ، والجحود ، كما فعل العقاد .

\* \* \*

منيت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وولد عباس محمود العقاد في ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩ . وكان مصر بعد الفاشية ولدت من جديد . فإن وليد أسوان كان حدثاً ضخماً في حياتها هز فيها كل شيء : الأدب والسياسة والوزارات والأحزاب والملوك نفسه .

وإذا كانت زمن المولد لا يني بمستقبل الوليد، فإن مكان المولد بيئته الخاصة والعامة يصلح ركيزة للشخصية الفريدة الواعدة . . ركيزة فحسب تمدد بالعرق أو الفطرة أو بالعوامل المساعدة بما يعينه على قطع الطريق الملىء بالجلاميد إلى أعلى القمم في تاريخ الفكر المصري والأدب المصري والخلق المصري والشخصية المصرية بكل ما يدخل في مضمون هذه الكلمة من وراثات التاريخ، وصفات الإنسان على هذه البقعة من الدنيا ذات الأسرار . ولد العقاد في بيت عرف صاحبه بحب العزلة وطول الصمت والتقي . فقد كانت أمه من أسرة تنسب نفسها إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وسواء أصبحت هذه النسبة أم لم تصح فإنها تضي على القائلين بها جواً خاصاً يليق بها . وهذه السيدة التي ولدت لمصر موسوعتها الحية، كانت لا تعرف القراءة والكتابة إلا أنها بالغة الدكاء خاصة في المسائل الرياضية : حازمة حتى لقد كان الأهل يطلقون عليها ( المشدة ) وهو مقدم الفعلة الذي يسوقهم بالقوة إلى العمل ، دموي ، ولوع بالنظافة ، حريصة عليها ، وعن هذه الأم أخذ العقاد الجانب الذهني كما أخذ ملامح الوجه .



أما والده فقد كان على رزاة فيه ، يؤدي عمله بلا إفراط ذكاء .  
كان أمين المحفوظات بأسوان . وكانت في عهده مستندات أملاك مديرتي  
إسنا وأسوان اللتين هجرهما أهلها أثناء حرب الدراويش مخلفين وراءهم  
أموالهم ثم عادوا . فكان الحصول على سند ملكية يهون لدى صاحبه في  
سبيله أى ثمن ، ومع هذا تعفف الرجل فلم يستغل وظيفته ، ومثل هذه  
الظروف محك لأخلاق الرجال .

وبهذه الصفات المميزة استطاعت هذه الشجرة المباركة أن تتمكن  
لنفسها في وادينا العجيب الخصب ، فثبت أصلها في الأرض وبلغ  
فرعها السماء بما غذته من مواهب العقل والقلب وصفات الإصرار والصبر ،  
وسمات التعفف والترفع والإباء حتى اجتمع له من صفاته النوايغ شعوراً  
بالمناعة يبلغ حد العجب أو الخيال .

\* \* \*

ونشأ العقاد في مدينة يلتقي فيها الماضي السحيق بالحاضر . ففي أسوان  
خاصة في الشتاء تلتقي أحدث صور الحضارة الحديثة بآثار الماضي العريق  
لا في المتاحف وحدها بل في البيوت ، فالحياة هي الحياة والوسائل هي  
الوسائل كأن كل شيء ثابت في مكانه لم يتحرك إلا الزمن .

وفي ملتقى الحياتين شب العقاد . فتح عينه الطفلة على الفتاة الباريسية  
والليدى الإنجليزية ثم المرأة الأسوانية المهجبة حتى ليعز على المرء أن يعرف  
أمه في الطريق . وهو وإن لم يعط هذا التقيض أهمية في طفولته إلا أنه قد  
لمسه في سن الوعي وملاً عليه إحساسه . فقد منحه بسطة في الأفق، كما



أعطاه قابلية الإحساس بسعة الحياة . وطبعه على الاستعداد للتقابل وعدم الإحساس بالتنافر .

ومرة أخرى تظهر مدينة أسوان في الصورة التي تراها وتقرأها وتلمسها عيوننا اليوم . فلما كانت مدينة مياحية بل مشى عالمياً فقد غصت بالمكتبات لمنفعة السائحين ، وهي بالطبع عامرة بكتب الآثار والتاريخ والقصص والمجلات . فكان العقاد يتردد عليها ويعب منها ما وسعته الطاقة والرغبة . وكان ذا نفس طلعة يندس بين السائحين ويتحدث إليهم ليعرن على الكلام بالإنجليزية . وقد مكن له من طلبته أيضاً المجالس المختلطة التي كان يدعى إليها . فقد كان بعض الأجانب ممن يزورون معالم المدينة يدعون ناظر المدرسة والطلبة المتقدمين ، فتسنى للعقاد في حديثه أن يجالس صفوة الأجانب رجالاً ونساء .

ولا شك أن الأمر هاله بادئ ذي بدء ولكنه واجه الموقف واستفاد منه . يقول العقاد عن أسوان في مذكراته :

« كانت البلدة التي نشأت فيها بلدتي أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ في مثل سني أن يأوى إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر في كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل . . . وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا في وسط غبارها لتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منها رويداً رويداً فلا تصل إلينا حتى تنكشف على جلاء . . . » .

يضاف إلى هذا كما يقول العقاد حالتان طارئتان على أسوان - في ذلك الحين - لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة . هما حملة السودان وبناء الخزائن .



ففي أثناء حملة السودان كان الحاكم العسكري ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح طائفة من الإنجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية . وكان كل بيت فيه ( ولد من أولاد المدارس ) مرجعاً نافعاً لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض إلى ( الحكام ) على حسب الاجتهاد . وكان ( نصف الفرنك ) نفحة سخية يحصل عليها ( الولد ) المترجم الذى يستطيع أن يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالإشارة أو التخمين . فأما ( الولد ) الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد فى معاملته إلى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار .

أما بناء المخزان فقد جلب إلى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرءون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا ( مع تنابع النظر ) أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقاً هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح . . . .

( آخر ساعة العدد ١١٩٣ - ١٩٥٧/٩/٤ )

\* \* \*

نستطيع أن نقول فى العقاد ما قاله فى كتابه عن برناردشومن أن نشأته فى أسوان ( ونشأته فى أسرته ، ونشأته فى أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى - كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر



حياته ، أو عنصر من عناصر استعداده وعمله في حياته الفنية والثقافية ) .  
 هذا الفتى الذى صنعت أسوان على عينها رفض طفلاً أن يلبس البنطلون  
 القصير كما رفض وهو فى السابعة من عمره تلميذاً صغيراً أن يدعو المعلم  
 باسم ( عباس حلمى ) كما جرت عادة أهل ذلك العهد الذى كان الطفل  
 فيه لا يذكر اسم أبيه بل يطلق عليه أحد الأسماء التقليدية ، حلمى -  
 صبرى - لطفى - شكرى ( على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة  
 لجرس اللقب وزينه فى الأسماع ) .

وهكذا عرف الطفل فى العقاد ، الرفض ، مبكراً . عرف الاعتزاز  
 بالنفس والاعتداد بالذاتية ، هذه الصفات التى رسمت طريق حياته . .  
 وحياتنا بالتطلع إليه، والاستعداد منه، والتأسى به . . . بل لعل موقف طفولته  
 البطول بالنسبة إلى سن السابعة وبالنسبة إلى الشائع بين لداته مما لم يجر  
 عليه ولم يقبله يفسر قوله عن نفسه صادقاً فى ( سارة ) ( أنه مطبوع على ألا  
 يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء أو من  
 الرجال ) . وهو جبروت لم يتخل عنه حتى فى السجن ، عالم السدود والقيود ! !  
 لم يتخل عنه جبروته ورغبة القدرة فى تتبيح الآخرين لها ولو كانوا هم  
 الطلقاء ! ! . دخل العقاد السجن فجعلت نفسه الماردة - وهو ما لم يسمع  
 به من سجناء . ( العالم الخارجى جزءاً لاحقاً بالسجن مضافاً إليه )  
 ويرى العقاد تلك الشيمة فى النفس - الإنسانية . والحقيقة أن ( الشيمة )  
 لا يقدر عليها إلا نفس العقاد . . هى وحدها التى تستطيع أن ( تنقل مركز  
 الكون كله إلى حيث تكون ) .



\* \* \*

وفي مطلع حياته كان يقرأ كرفاق صباه صحف عبد الله النديم ، ولكن على طريقته هو ( ولفتنى العناوين البارة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ووجدتني ذات يوم أقطع الورق قطعاً على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منها فأكتبه متأقفاً وأعارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ » ) . هنا تطل شخصيته . . تطل الذات لتأخذ (موقفاً) في موقف يغلب فيه التسليم والاتباع .

( أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زمناً في البيئات المصرية ، وهي المقالة التي جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الأولى .

فكتبت مقال الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم » . ومرة أخرى تطل الذات العقادية الشموس فيستشرف إلى أبعد من هذا ولا يرى نفسه تلميذاً في مدرسة النديم ولا يشعر بأن ( الرجل قدوته المختارة بين أمثلة النبوغ التي يتمناها أو بين الشخصيات المثالية التي يجملها ويحب أن ينتمى إليها ) .

على أن الرجلين يلتقيان في أكثر من وجه شبه فكلاهما تعلم صناعة التلفزيون ، وكلاهما اشتغل بالتعليم في مدرسة خيرية ، وكلاهما طورد من البوليس وتنكر مستخفياً .

ولكن الأمر لا يعدو وجوه الشبه التي تصنعها المصادفات أو مقارنات



الكتاب في معرض التأريخ وكتابة السير . فإن العقاد يمتد امتناعه على الاقتداء فينسحب على غير النديم حتى ممن يفوقونه . فليس بين العقلاء السابقين واحداً اتخذ منه العقاد مثله الأعلى على إعجاب بهم وتقدير . وتأثر ، يفرضه ولو ببدون وعى ، الإعجاب والتقدير ، خاصة ، في مطلع حياته حين كان يحتنى بقراءة كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وأرنولد وغيرهم من أئمة المقالة في القرن التاسع عشر . وترك هؤلاء الكتاب انطباعاتهم عليه فترجم عنهم حيناً وترسم نهجهم حيناً آخر فيما كتبه عن أدباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق .

وإذا كان العقاد لا يطيب له أن يكون هناك أشخاص في حياته يجرى ذكركم في قلمه أو يعرض حديثهم على لسانه ، فلعلمها من الموافقة التي تلتقى في الهوى على غير خلاف، أن نذكر في باب المؤثرات شيئاً يحسب له لا شخصاً يحسب عليه عند الرجحان . والشئ الذي كان له في حياته مكان أو أثر هو المرض الذي ألم به في فجر شبابه وإن لم يذكره العقاد ، بل لعله يخصصه بإغفال ، ومع هذا يرى له كاتب كالأستاذ محمود تيمور ( الأثر الأعظم في تكوين حياته وإبراز طابعه ) - فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كي تشبع نهمها إلى القراءة والدرس في ذلك المنزل .

وكان من أثر الاجتهاد في صومعة القراءة والدرس أن تمكنت في خصائص ( العقاد ) ملكة التأمل في الحقائق ، والتعمق في الأفكار ، فاكنت فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة



وهذا المرض كان من أثره أن استقر في قلب (العقاد) حب الحياة والتشبث بها والكفاح في سبيلها ، فإنه لما واثاه الظفر في عراك المرض ازداد تعلقاً بالحياة ورغبة في التمتع بأطاييبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . فلم يجمع العقاد مالا ولم يدخره ، بل أنفقه على فكره ، وعلى نفسه ، وعلى من يلوذ بحماه . وكان من عتبي ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة ، وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة ، وإذكراً بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار . فتجلى في حياته وفي إنتاجه هذا اللون من القوة والصراع وصلابة القناة فكان بصفاته الفريدة حدثاً ضخماً في حياته وفي حياتنا . كان العقاد يذهب إلى رئيس الحكومة ومجلس الوزراء منعقد فيخرج من الاجتماع للقائه في مواعده لأنه يعرف خطر موعد العقاد . كان دقيق التفكير . . دقيق النظام . . دقيق الموعد . . دعاه نائب قنا ثم تأخر عن استقباله بالمحطة . فلم يغادرها العقاد انتظاراً للقطار العائد . وعبثاً حاول الرجل استرضاءه . فلما أعيته الحيل نقل سراقاً للاحتفال إلى المحطة حيث هو .

\* \* \*

وعقيدة احترام الإنسان ، اقترنت في رأيه وضميره بالكرامة الشخصية ، فزهده بل نفرته من الوظائف الحكومية التي تولاها ، والتي كان سرعان ما يضيق بها . فحين عين بانفسم المالي بادئ الأمر في مديرية الشرقية ، فكر في الاستقالة لينشئ صحيفة اختار لها اسم (رجع الصدى) ثم عدل عنها .



وفي الفترة ما بين ١٩١٢ ، ١٩١٤ التي عمل فيها بديوان الأوقاف لم يكن راضياً كل الرضا مع أن عمله في قلم السكرتارية من ذلك الديوان كان مزيجاً من الصحافة والوظيفة . وكان ( ديوان الأوقاف في تلك الحقبة مجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان . كان فيه محمد المويلحي وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر وأحمد الكاشف وعبد الحليم المصري وعبد العزيز البشري وحسين الجمل وإخوان هذا الطراز ) ومع هذا ما إن فاتح حافظ عوض ، العقاد ، في الإشراف على صفحة الأدب بصحيفة المؤيد حتى سارع إلى القبول . على أنه لم يلبث أن استقال لسمة من سمات الكرامة في نظره وتقديره ، وكانت استقالة رابحة فقد خلا بعدها إلى القراءة والتأليف .

ويصف العقاد هذه الفترة بأنها كانت موسماً خصباً حقاً بشمرات التأليف ( لأننى انتهيت من كتاب : « ساعات بين الكتب » في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث . وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه السوبرمان . وهذا الكتاب الذى ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التى كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة . وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة سميته « الإنسان الثانى » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتممت رسالتى « مجمع الأحياء » تلخيصاً للآراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ،



وهو الكتاب الوحيد الذي تم ونشرته تماماً بعد تأليفه بفترة وجيزة .  
ونظمت في هذا الموسم الأسواني أكثر من نصف قصائد الجزء الأول  
من الديوان. ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة  
من دفعات الفكر لم يبق لها في نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول .  
ولعل كرهه للوظائف وعدم استعداده الطبيعي أو الخلقى لها هو الذي  
أقنعه بعدم التأهل لها بمؤهلاتها التقليدية من شهادات كانت في زمانه ،  
خاصة لا تقصد في الأعم الأغلب إلا لما تهيئه لصاحبها من وظيفة تنسبه  
إلى الميرى وتحسب عليه . فاكتفى العقاد من مدرسة الدولة بالشهادة  
الابتدائية حين لم يقنع من مدرسة الحياة بما هو أكبر بكثير . فظل حياته  
طالباً في تلك المدرسة وأستاذاً بها يتعلم عليه فيها حملة الإجازات بمختلف  
مراتبها وألقابها .

وهذا القلم الذي استقر نصف قرن بين أصابع العقاد في ثبات واعتداد  
كان له درعاً وكان له سلاحاً . فحين نشبت الحرب العالمية الأولى ومست  
أسوان بالتجنيد الإجبارى والاعتقال المتكرر والإتاوات لتعلات ملفقة ،  
شهر العقاد سلاحه الخاص : القلم . فكتب ونشر في تحد ظاهر هو سمة  
من سمات العقاد حتى إن السلطات عند ما نفت ناظر مدرسة المواساة إلى  
جزيرة مالمطة، تعمد أن يشغل مكانه ( تحدياً للأمر ) كما يقول .

ويبدو أن التحدى أفاده هذه المرة فإن مدير الإقليم حين ضاق به ،  
عليه نفيه إشفاقاً أن يقال إنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة  
في البلدة ، وإن احتال للأمر فصدمه بمفتش الداخلية الإنجليزي حتى



اضطر العقاد إلى أن يرحل من أسوان متنكراً . ولكنه لم يكف عن حربيهما حتى أودى بهما في النهاية . فإنه لم يكد يطأ أرض القاهرة حتى لاذ ( بجمفر والى باشا ) وكان صديقاً . وكان في ذات الوقت وكيلاً للداخلية فكان يصطحبه كل يوم إلى مكتب المستشار ليشهده على كذب التقارير ضده التي تفد كل يوم من أسوان مندرة بخطر وجوده في الإقليم ، مما أدى إلى إحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية . فخرج من أسوان ولحق به المفتش . ومن الطريف أن المدير الذي خلفه كان يدعى « مقبل باشا » . فأبرق العقاد إلى أصدقائه في أسوان يقول :

شر مدير وخير مقبل

\* \* \*

وحين كان العقاد يعمل في وظيفة بمصلحة الإيرادات بقنا - وهي مركز أدبي قديم - أنشأ مع أهل الأدب بها - جمعية أدبية كانت تجتمع يوم الخميس من كل أسبوع في مبنى الكنيسة باتفاق مع قسيسها البروتستنتي . ثم خلف الصعيد وسافر إلى القاهرة وعمل بالكتابة والصحافة . وتاريخ العقاد في الصحافة يبدأ بصحيفة « الدستور » التي أصدرها الأستاذ « محمد فريد وجدي » منذ نصف قرن . فقد كانت أول صحيفة يومية عمل في تحريرها، وأول صحيفة أيضاً واطب عليها . فقد عمل بها من العدد الأول إلى العدد الأخير مضطرباً بنصف أعباء التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . فقد كان هو المحرر الوحيد مع صاحبها .



وقد كان العقاد يوقع مقالاته الأولى باللقب وبالحرفين الأولين من اسمه : « ع. م. العقاد » متأثراً بالمجلات الأجنبية التي كان يقرأها . ومن الطريف أن هذا لفت إليه النكتة المصرية فكان رفقاؤه يسمونه « عم العقاد » ويتفكهون « ماذا تقول يا عمنا » . . إلخ .

ولكنه في سنى الحرب انصرف أكثر وقته إلى التدريس . ولكن علاقته بالصحافة لم تنته وإن كانت قليلة متقطعة على تعاضدها وتنوعها . فقد اتصل بألوان من الكتابة الصحفية أتاحت له الوقوف على طرف من أسرارها وتجاياها . وفي هذه الفترة كتب إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية كما اشتغل بالصحافة اليومية في غير القاهرة .

وقد عمل العقاد رقيباً نزولاً على رغبة « جعفر والى باشا » وكيل الداخلية . ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالرقيب العام مستر « تيلور » في ذلك الوقت فألقى إليه باستقالته ولما يعرض عليه غير أسبوع .

\* \* \*

ثم اشتغل بالتدريس في مدرسة وادى النيل الثانوية على مقربة من مكتب المقنطف والمقطم حيث كان يكتب في فلسفة المعرى وفلسفة شوبنهاور مقارناً بينهما . وقد استدعاه ذات يوم الدكتور يعقوب صروف واقترح عليه الرحلة إلى الخطوط الأمامية في صحراء سيناء ليصفها بثاً للطمأنينة في النفوس . ولكن العقاد رفض لأن الدفاع في ذلك الوقت كانت تقوم به دولة الحماية وهويتاؤها .

ثم انقطعت به الأسباب حيناً قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى فأوى



إلى بيته الذى اختاره بحى الإمام الشافعى متعمداً ليكون بعيداً عن القاهرة بتكليفها ، فلم يكن يفد عليها إلا مرة فى الأسبوع هى يوم السبت . وفى إحدى هذه الزيارات علم أنه مطلوب للتحرير فى صحيفة « الأهالى » بالإسكندرية .

وكانت « الأهالى » إحدى ثلاث جرائد كانت شبيهة بالرسمية . فقد عمل على إنشائها « محمد سعيد باشا » رئيس الوزارة فى ذلك الحين لتكون لسان حاله . ومن الطريف أن اسمها هو نفس الاسم الذى كان إسماعيل أباطة باشا يصدر به صحيفته . وقد وقع الاختيار على هذا الاسم بداته ( لأن اسم « الأهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغاً بالصيغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة كما يقول العقاد ) .

ولما شرعت صحيفة « الأهالى » فى مهاجمة الرأى السياسى الذى كان يتشيع له العقاد ، تركها وعمل بجريدة الأهرام حيث كان يدافع بقلمه عن القضية المصرية . وقد حدث عند ما أعلن ملتر بلاغه أن ترجمته الحكومة فى بلاغها الرسمى ( أن الغرض من التحقيق إعطاء الاستقلال « تحت أنظمة دستورية » ) وشايعتها الصحف بإيعاز منها ما عدا الأهرام . فقد رأى العقاد هذه الترجمة مدلسة وانفرد بترجمتها « تحت أنظمة حكم ذاتى » . حدث هذا فى ظل الأحكام العرفية . وكان هذا التزوع إلى إشهار الحقيقة والبر بها ، أحد الأسباب التى عرضته للننى يوماً .



كما حارب العقاد الملكية في مصر بلا هوادة من أجل الدستور وإرساء قواعد الحياة النيابية . فقد حدث أن سلم عبد الخالق ثروت الدستور للسراى حيث ظل بلا إعلان لأن الملك فؤاد كان يريد أن يسقط من الدستور عبارتين أولهما ( الأمة مصدر السلطات ) ، والأخرى ( الوزارة مسئولة أمام البرلمان ) . وفي سبيل هذه الغاية حاول استمالة بعض الوفديين ، فإذا العقاد يفتح عينه على المكيدة . فكتب مقالة يقول فيها إن الدستور كما يجب يعلن . وإذا كانت به أخطاء فإن البرلمان يناقشها . وقدر لهذه المقالة إحدى اثنتين إما أن يرفض البلاغ نشرها فتتكشف الحقيقة ، وإما أن ينشرها فتحبط المؤامرة . ونشرت المقالة وأبطل التدبير الذي بُيّن بلبيل . . .

ثم توالى الوقائع . حدث أن أقال الملك فؤاد الوزارة الوفدية لوثاقم وزارة يرضاها . وهذا نذير يهدد بإلغاء الحياة النيابية . فوقف العقاد على منبر البرلمان يعلنها مدوية أن شعبنا قادر على سحق أكبر رأس تتعرض لحياته . وحفظها له الملك فؤاد .

على أن العقاد لم يكتف بهذا بل ظل يكتب مقالات عن الرجعية يرتد الهجوم فيها بلا مشقة إلى الملك فؤاد فأفضى به الأمر إلى السجن .

• • •

وحياة العقاد سلسلة طويلة من الكفاح . . الكفاح بكل ألوانه . . الكفاح الأدبي والسياسي والمادى أيضاً . فقد صارح الرجل الزمن والأحداث والسلطات في عهود شتى حتى استطاع أن يزحزح كل القوى المعوقة ، وينفذ



إلى مكانه الطبيعي في الحياة . وكان يقضى الليل يقرأ على ذبالة مصباح  
ويقضى النهار على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول . .  
وتعقبه في أعقاب الحرب العالمية الأولى الاستعمار والسلطات الممثلة له ،  
ولكنهم لم ينالوا منه شيئاً غير أن أخرجوه من بلده أسوان ليعود . واضطهدته  
الملكية حتى أودعته السجن ، وعرف مرارة الغبن والجحود فعاش منفرداً ،  
معتداً ، جميعاً بنفسه ، كثيراً بشخصه الفرد . . غير آبه بمن يعيون عليه  
التفرد أو العزلة أو الاعتداد . خالص للأدب والعلم فخلصاً له . وعاش بين  
كتبه لا يمل صحبتها ولا تملّه . . كلاهما غنى لصاحبه وكفاء . . وقد انتظمت  
حياته على القراءة والكتابة فهو إما أن يستزيد وإما أن يزيد . . رفيقه في  
العمر كتاب هو قارئه أو هو كاتبه فليس غيره على الحالين صاحب وخدين .  
وقد أوتى العقاد الكتابة بكل ملكاتها ومواهبها ففاض بالشعر ، وتوسع  
في المقال ، والتقد ، والتاريخ . . واللغويات ، والدين ، والفلسفة ،  
والعلوم ، وعالج القصة . وبهذه المواهب المتنوعة المتعددة ، مصحوبة  
بالقدرة على التأمل النافذ من ذهن موسوعي استطاع العقاد ، كما يقول  
الدكتور عثمان أمين ، أن يفتح في عالم الفكر (طريقاً طويلاً بلغ فيه بجهد  
وصبره غاية قلما يبلغها مفكر واحد في عصر واحد) .

ولما تنسك العقاد في مكتبته **رفض المناصب** وقد عرض عليه منها  
ما يفري . إنه الاكتفاء الذاتي لو صح هذا التعبير في دنيا الأفراد . لكأن  
العقاد أودع رفضه كل صفاته من جبروت وصرامة واعتداد واستعلاء وزهد  
في المناصب وما تضيفه . . إنه الأغني بالقلم .



وهكذا عاش العقاد قلمه وعاش به . . عاش ولوعاً بالمعرفة الإنسانية على اختلاف ألوانها . يخف إليها في مظانها . عصامي صنع نفسه على غير مثال في الرجال، وشق طريقه في الحياة بسلاح الذكاء الفطري والموهبة الأصيلة التي يزيد بها الصقل والتجربة والطموح تألقاً ومضاء .

وهو يجيد من اللغات غير العربية ، الإنجليزية إجادة تامة . . روى لي مرة أنه كان إذا كتب في العربية تمثلت الجملة في ذهنه لأول وهلة ، إنجليزية ثم يخرجها على الورق عربية وذلك من طول قراءته للإنجليزية وتشربه لها . وإنه ليستعين بها على فهم الإيطالية والإسبانية اللتين يفهمهما بقدر ما هو مشترك بينهما وبين الإنجليزية .

أما الفرنسية فقد تعلمها أقصد علمها نفسه أثناء سجنه .

وفي الأدب العربي كان العقاد يؤثر من كتابه ابن المقفع وصاحب الأغاني ومن الشعراء ابن الرومي .

وعلاق الفكر العربي والأدب العربي كان أسلوبه بخصائصه المتميزة يمثله ويعلن عنه . أسلوب العقاد أسلوب منطقي يعتمد على المقدمات والنتائج حتى لتحس إزاء مقالته أن أفكارها مرتبة ترتيباً يتميز فيه البدء والمختام قبل أن يخط فيها حرفاً . وأدب العقاد كما يقول الدكتور عثمان أمين ( أدب الفكرة الواعية في أرفع منازلها ) . وقد كان ملاك الرأي عند العقاد في الفن والأدب هو أن ( الفن والأدب وجدان إنسان ، ولن يكمل الإنسان بغير ارتفاع في طبقة الحس وارتفاع في طبقة التفكير ، وأن التمام في مزاياه الإنسانية أن يتم له الحس ويتم له التفكير ) .



الصرامة والجد والتوقر طابع جلى فى ( أدب العقاد ) شعره وترسله .  
 وأسلوب العقاد أسلوب علمى ما لم تغلب عليه طبيعة الموضوع إن  
 كان أدبياً خالصاً . الجملة عنده بنيان مرصوص . والكلمة فى مقاله لها  
 موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر ، فهو بحق إمام من  
 أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وهو لا يوتاح إلى الجمل المعترضة ومن ثم يدخلها فى السياق . ويتحكم  
 فيه السياق نوعاً ما حين يملئ عليه التعبير المختار أو يوحى به . . .  
 ومع ما لأسلوبه من الطابع العلمى إلا أنه يميل إلى الإيقاع ونهاية  
 الفواصل فى غير حشو أو فضول . وهو يؤثر المعنى على اللفظ وإن كان  
 يستهويه السجع أحياناً فى موضوعات التهكم والدعابة ، كما يختاره فى  
 الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية . ( فإن السجع  
 ينهى الذهن إلى المعانى فى هذه الأغراض ويزيدها جلاءً وتوكيداً ، كأنه  
 اللحن الذى يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذى يسمع  
 بغير تلحين ) .

• • •

وهو متعصب للفصحى ولا يقبل التساهل فيها ، ويرى أن الكتابة  
 الإنسانية ما كانت باللغة الباقية ذات القواعد .  
 ولكن تعصبه للفصحى فى الحقيقة كان رد فعل للهجوم عليها من  
 جهات عدة . وكان العقاد يرى ( الحملة على اللغة فى الأقطار الأخرى  
 إنما هى حملة على لسانها أو على أدبها وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال ،



ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنيها ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة . لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيا بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربي أو المسلم قوفاً يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يدوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان ) .

ولم يقف العقاد عند هذا الحد بل انبرى يبرز المزايا العلمية لهذه اللغة في كتاب كامل حين مست الحاجة إلى إبراز هذه المزايا غاية المساس ، لأنها في يقينه ( قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية ، لا لأنها لغة كلام وكفى ) .

• • •

وهو يزور عن النقد المتشائم ويعترف عن أصحابه . وإن كان لا ينكر على النقد أنه أصدق المذاهب على أن يدافع فيه العطف وتمتدح به الرحمة . Humanity Sympathy كالذي تطالعه العين في أدب المعري وشوبنهاور .

والعقاد في نقده يراه قوم متعصباً لرأيه . فأفكاره قضاء من حقه التسليم . ونسوا أن أفكاره هذه ، حياته .. أنها زوجه والولد .. أنها نور عينيه .. أنها دنياه وعالمه ، حين يفكر الآخرون ولكن ساعة من نهار ، أو سائناً من خاطر ، أوحى اهتماماً مقصوداً ، ولكنه أحد اهتمامات كثيرة هي في مجموعها لا تلهيهم عن مناعهم دنيا تعفف عنها العقاد ، وترفع عليها ، واستبدل بها عالم الفكر ومحاربه ليتعبد فيه ويتعبد ، وكأنه الكاهن حثبور كما كان يلقيه تلاميذه الصغار حين كان هو نفسه صغيراً في حساب السنين . .



يقول العقاد : ( إن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معروفة الأسباب ، وناهيك بالعظمة التي ترتقى هذا المرتقى . من تلك الخصائص أنها قد توصف بالتقيضين في وقت واحد لأنها متعددة الجوانب فيراها أناس على صورة ، ويرأها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين . ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك . ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر .

ووصفه هذا للعظمة ينطبق عليه ، فقد كان كابن سينا المعجبون به على الجملة أكثر من محبيه ، لأنه رزق أسباب الحسد من جميع نواحيه . فكان رجلاً عظيم الذكاء عظيم الاعتداد بالنفس عظيم النشاط ممتلئاً بالحياة . لكأنما كان يصف نفسه من خلال ابن سينا .

• • •

وآثر فنون المعرفة عند العقاد بترتيب :

- الشعر عربياً وأجنبياً وما يلحق به من نقد ودراسة .
- البحث فيما وراء الطبيعة .
- العلوم .

• • •

فقد شاركت كتب العقاد المالة .



ومن عجيب أن هذه التحليقات التي أغنت أدبنا وتاريخنا ، هذه الآفاق التي أحسنت إلينا ، أساءت إلى ربها شاعراً ! فشعر العقاد قيمة إنسانية كبرى بما أعلى من شأن ( الإنسان ) وليس شعراً عربياً فحسب . وكانت أحب صفات العقاد إلى نفسه صفة « الشاعر » . ولكن بحوره في الكتابة على اختلاف ألوانها غلبت صفة الكاتب ، وصفة المفكر ، وصفة الأديب . يضاف إلى هذا أن العقاد شاعراً يقترب في أذهان الناس برقيقه الشعارين المازني وعبد الرحمن شكري عضوي مدرسة الديوان . والذي حدث أن المازني زهد في الشعر وخلص للنثر ، « وشكري » زهد في كل شيء : الشعر والناس والحياة . وآص إلى عزلة رهيبة أسلمته إلى العزلة الكاملة .

هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة ألهمت الناس وأنسهم ما لا يُغفل عنه في مجال التاريخ والتقدير ، وهو مثالية العقاد في الشعر ، وتفرد العقاد الشاعر . وقد سبقني إلى هذا القول الدكتور طه حسين الذي أعلن سنة ١٩٣٤ على الملأ : « أني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد » . ولم يقل الدكتور طه حسين وهو أعلم بمواطن الكلام هذا القول ، تحية بمجامل فطالما تعارض الرجلان في الأدب وفي غيره مما تشاجن فيه الآراء ، ولكنه قال عن علم رجل الأدب بالعقاد الذي خلق لنفسه بالدرس المتصل الطويل الذي لا يعرف حداً ، ( قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم من أقل الناس قراءة في هذا العصر . خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيراً إلا في أوربا حيث يلتبس الشعراء الفن لا في الأدب وحده ، بل في العلم ، وفي كل شيء آخر ) .



وحين يحدد الدكتور طه حسين مكان العقاد في الشعر ومتى ؟ منذ ربع قرن يعلن مرة أخرى ( أن المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقي ، وأن المدرسة الجديدة - أي مدرسة العقاد - قد أخذت تؤدي حقها وتنهض بواجبها فترضى المصريين والعرب جميعاً ، فإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضاً ، وإذا الشعور المصري والقلب المصري والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقي ، إنما تريد وتأتي إلا أن تصور تصويراً جديداً . وهذا التصوير هو الذي حمل الملايين على إكبار العقاد ) .

لماذا أكبر الدكتور طه حسين العقاد وآمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر ؟

( لأنني حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ) .  
ثم لماذا أيضاً ؟ ( ثم لأنني إذا قرأت شعره مرة ومرة ومرة - لم أستطع أن أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا . أرى شعر الباحثى أم عند أبي تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ، كلا . . إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده ، لأن العقاد ليس مقلداً ، ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته . وشخصية العقاد فوق الفساد . خلدوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين . أنا واثق أنكم لن تمضوا في قصيدة حتى تذكروا شاعراً من المتقدمين ، أو أن تذكروا شاعراً من الغربيين المحدثين ولكن انظروا في العقاد خلدوا بيتاً من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد ) .



هذه أقوال أفذاذ لم تستطع المعاصرة أو المناهضة أن تحجب كلمة الحق  
أو حتى زهو الفخر وإشادة التقدير . . .

\* \* \*

وكان العقاد يخطط لحياته فلا ينجز مشروعاً حتى يرسم آخر فلا يستريح  
بينهما إلا أسبوعاً . والراحة هنا معناها أنه يتخفف في القراءة فيختار  
الموضوعات الخفيفة والشيقة . فإذا فرغ الأسبوع الموعود شرع في وضع  
الكتاب الجديد . وكان آخر اهتماماته سلسلة أتم بعض حلقاتها . وهذه  
السلسلة كتب أربعة عن :

الله - الكون - الإنسان - الشيطان .

وقد أنجز العقاد منها كتابه ( إبليس ) وكتاب ( الله ) الذي احتشدت له  
ملكاته كلها . وبعد رحلته الفلسفية الطويلة فيه . انتهى إلى القول بأن  
( الإيمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة . لأن الإنسان غير المؤمن إنسان  
« غير طبيعي » فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون  
الذي يعيش فيه ، وأن الحس والعقل والوعي والبديهة جميعاً تستقيم على  
الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر المخلقة  
يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم ) .

كما انتهى بحثه فيه إلى أن ( العقيدة الدينية هي أقرب الفلسفات  
إلى المعقول وليس قصارى الأمر فيها أنه أمر تصديق وإيمان .

لا بد من وقفة في كل تفسير للوجود .

فوقفة المؤمن أصح من وقفة الفلاسفة في النهاية : كل ما هو محدود



فقد يحيط به القياس ، ولا إحاطة بما ليست له حدود . « الباري »  
قديم سرمد لا يحده الزمان ولا المكان . ليس كمثله شيء وهنا يحسن  
الوقوف .

لأنه عقيدة وكفى ؟

كلا ، بل لأنه منطق سليم ، ولأنها نهاية شوط العقول .  
ومن مشروعاته في الكتابة لو أن العمر امتد به ، الكتابة عن الغزالي  
وعن بعض الشعراء مثل توماس هاردى وهابني .

\*\*\*

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود يشبه شعر العقاد بأنه ( أقرب  
شيء إلى فن العمارة والنحت وأن القصيدة عنده بناء من الصوان ،  
والقلم في يده هو إزميل النحات ، وأنه لا يصوغ قطعة من العجين اللين  
ولا يقيم بناء من الطين الطرى المطواع فلا الفكرة عنده قريبة المنال ،  
ولا المادة سهلة التشكيل . القصيدة عنده هي المسلة القديمة قدت من حجر  
الجرانيت لترسخ في الأرض وترتفع في السماء فما هنا العمق . . والسموق  
معاً ) .

إذا كان الدكتور الباحث يقصر هذا الوصف على شعر العقاد ،  
فإن هذا الوصف يصدق في غير زيادة أو تحريف على أدب العقاد  
كله شعره ونثره على السواء . فكل كتاب للعقاد وراءه جهد دارس  
متعمق محيط . وكل كتاب للعقاد بصورته التي هو عليها من حيث تناول  
والصياغة ومادة الموضوع ونفاذ الرأي والتحليل ، ( مسلة ) قدت من حجر



الجرانيت لترسخ في الأرض وترتفع في السماء . وليس بكتاب للعقاد ما احتوى على فكرة قريبة المثل أو مادة سهلة التشكيل .

ولكن أقرب كتبه إليه كتابه ( ابن الرومي ) . إن بينه وبين الشاعر تجاوب الفن حتى ليراه في النوم على صورة واحدة كما حدثني مرة . . وهو يرى في ابن الرومي شاعراً وصافاً لا نظير له . في آداب الدنيا على كثرة ما فيها من وصف ووصافين . فهو حين يكتب عنه يجد رضى نفسه في الكتابة . إنه يرتاح حين يعطيه حقه ويرفعه إلى حيث يجب أن يكون . . لقد كتب العقاد عن عمر ، الذي نال بكتابه عنه جائزة الآداب . ولكنها كتابة الإنسان الذي يؤدي واجبه ويقول ما يعتقد . ولكن كتابه ( ابن الرومي ) فيه ذاتية واضحة تحب في إعجاب وتنعصب في حماسة . .

\* \* \*

وقد تُرجم كتاب ( الله ) إلى الفارسية كما ترجمت بعض كتب الأستاذ العقاد في ألمانيا وروسيا وفرنسا .

وترجمت إلى الإيرانية والأردية والملايوكتبه :

( عبقرية محمد ) ، ( أبو الشهداء ) ، ( عبقرية الإمام ) .

\* \* \*

ولكتابيه الأول ( خلاصة اليومية ) قصة هويروها :

( كان يأساً من معنى الحياة . . كل غاية في الحياة . . لأنني قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة في كتب ( الفلسفة المادية ) وأكثر من النظر في مذهب النشوء والارتقاء فلاح لي أنه أصدق من أقوال خصومه



المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين . ولاح لى من النظرة الأولى على غير رؤية فيه أنه يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجاً واحداً يرتفع عليه . وكذلك كتبت فى مقدمة كتابي ( خلاصة اليومية ) أن الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان .

وقصة ( الخلاصة ) هذه هى قصة الأمل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الأدب وفى عدد الأيام التى أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب . وكنت أظننى مبالغاً إذا حسبتها بأكثر من الأيام . هو الموت إذن كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر . وهو الموت إذن أمضى إليه صفر اليبدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ومن كل مجد يبقى بعد ذويه .

\* \* \*

و « اليومية » هذه هى دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات وأبادر إلى إيداعه أبيات الشعر التى نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رموس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادير الأخاديد العابرة التى أعاودها فى مناسباتها . وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات . فلما وقع فى وهى أننى سأذهب بغير أثر ولا خبر تصفحت هذه الدفاتر ونقلت منها صفحات متفرقة تشمل على جميع نماذجها وبعثت بها إلى صديق فى القاهرة أقول له إن هذه الصفحات هى كل ما أتركه إذا تركت الحياة : فإن وجدنى أهلاً



للدكر ووجدها أهلاً للنشر فتلک کرامة الصديق الراحل على الصديق  
الباقى ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان . . يطويها  
حيث طواها فى زاوية من زواياه .

ثم طبعت خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان  
من التوفيقات التى لم أترقبها أنها نفذت فى أقل من ستة شهور ، فلم يبق  
من ألقى نسخة طبعتها منها غير مائة أونيف ومائة ، وهو بحاج غريب لكتاب  
ولدتة فكرة يائسة من الحياة ) .

ولكنه لم يخرج من الدنيا فى ذلك الوقت الذى قدره لأن الله أراد بنا  
خيراً فعاش العقاد ليملاً الدنيا لمصر مجداً ، وعاش ليملاً حياتنا أدباً وعلماً  
وفكراً ، وأملا فى ( الطموح ) ، وفى ( الكرامة ) وفى ( الإنسان ) . .  
فى الإنسان الذى كان العقاد بشخصه ، وسيرته ، وكتابته ، أشرف مثل  
له وأكرمه على الحياة والناس .

\* \* \*

والعقاد مدرسة ولكنها لم تتبلور إلا فى الأعوام الأخيرة . فقد كانت قبلاً  
شبه علاقات متفرقة بأفراد متفرقين ثم اتضحت معالمها . ومن أبرز أبنائها  
الأستاذ على أدهم والدكتور زكى نجيب محمود . والدكتور عثمان أمين  
والدكتور محمد غلاب والأستاذ أنيس منصور والأستاذ عبد الرحمن صدقى  
والفنان صلاح طاهر والموسيقى الشعاعى والأستاذ عبد الفتاح الديدى  
والدكتور نظمي لوقا والشاعر محمود عماد والشاعر محمد طاهر الجبلوى  
تلميذه وصديقه .



ومن أصدقاء مدرسة العقاد الشاعر عزيز أباظة والمرحوم الأستاذ كامل الشناوى والأستاذ طاهر الطناحى .

\* \* \*

وأدب العقاد على جديته وصرامته لا يخلو من المرأة حبيبة ، وصديقة . فالعقاد من ذلك الرهط الذى كان يؤم صالون ( مى ) الأدبى وينشئ مجالسها ، ومى هى بعينها ( هند ) فى ( سارة ) وفى الديوان . وظاهرة فى أدب العقاد أن كل اسم فى ( الديوان ) أو ( سارة ) من حيث الوزن العروضى له نظيره الحقيقى حتى تلك التى يدعوها ( يابنية ) فى ديوانيه ( أعاصير مغرب ) و ( بعد الأعاصير ) .

وكانت ( سارة ) شخصية مستوفية ثقافة وجمالاً . ذات أنوثة متأصلة عامرة طاغية حتى ليؤثر عنها قولها ( لو خيرنى أن أكون رجلاً لأبيت ) . ولعل هذه المستويات الرفيعة من الثقافة والنماذج الرائعة من الجمال هى التى زهدت العقاد فيها هو أدنى ، أولعله التنسك فى محراب الفكر حتى لا يعطى من نفسه أحداً سواه . يعزز هذا ما رآه العقاد من تمزق صديقه المازنى عند وفاة ابنته قال يومئذ على نفسه ألا يواجه هذا الموقف المروع وأشفق عليها من مجرد احتمال الشكل . وكان العقاد مرهف الإحساس شديد التأثر لا يطيق الألم فى نفسه أو نفوس الآخرين وخاصة الألم الذى لا قبل للإنسان بدفعه أو تفاديه .

وجوهر الرأى عنده فى قضية المرأة كما جاء فى أكبر كتبه عنها ( المرأة فى القرآن الكريم ) : أن :



ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما في الأمة على سنة التعاون والتقسيم ( لا على سنة الشقاق والتناضل بالمطالب والحقوق ) .  
وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذي يفضى بالصراع على كفاية واحدة بدعيها كلاهما في مقام الخصومة ، ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصح لهذه وأيهما أصح لتلك ، وإن صلح كلاهما لكفاية الآخر في كثير من الأحيان .

وهو حين يرى وظيفتها المثلى التي تستقل بها : حماية البيت في ظل السكينة الزوجية من جهاد الحياة ، وحصانة الجيل المقبل لإعدادة بالتربية الصالحة لذلك الجهاد . . حين يرى هذا يعلن في غير موارد أن حصتها هذه ليست بأصغر الحصتين . ليس تدير السكينة في الحياة بأهون من تدير الجهاد ، وليس العمل الصالح لسياسة الغد بأهون من العمل الصالح لسياسة اليوم .

\* \* \*

وقبل أن أضح القلم أريد أن أقف وقفة قصيرة عند ظاهرة لا نخطئها عين الدارس لأدب العقاد بل القارئ العادي وأعني ظاهرة ( النور في أدب العقاد ) .

والنور ظاهرة من ظاهرات كثيرة في تراث الرجل الكبير فقد أحب النور ، واختار بيته في مدينة النور ، وفتح للنور كما فتح عقله الكبير للنور . . كل النور . . من الشرق والغرب فبدأ عقلاً نورانياً موسوعياً في عصر التخصص والتحديد . وهو بهذه الصفة ظاهرة فذة بين الأعلام المعنودين



وهو بهذه الصفة عاش قرناً طويلة لا تقاس في عداد السنين بالسنين والسبعين ، التي نعرفها .

والنور الذى أحبه العقاد النور العادى والنور المعنوى على السواء .  
فقد أحب العقاد النور لأنه كان صريح النفس لا يخفى ، صريح الرأى لا يخفى به ولا يجمع فيه بل كان حراً كالنور ، نافذاً مثله يكشف المعميات والخوائى . على غراره . واختلف الناس في طبيعة النور الذى أشرق على مصر من أسوان اختلافهم في معنى العظمة والعظيم فقال المبصرون هو النور والإشراق ، وقال المذعورون بل النار والإحراق . ثم غدا العقاد سيرة مجيدة . وإذ هدأ روع الخائف تعلق بما كان ينكره ، والتقى معنا على تمجيده والوفاء له . وحق له الوفاء والتمجيد .

إنسان شفاف مضيء بحب النور ويعيش في النور بل كان يتعشق النور حتى ليقول : ( أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً . وأحبه مخزوناً كما يخزن في الجواهر ، وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر . وأحبه في العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .

ويوم سكنت في هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبتني أنني أفتحها فلا أرى منها إلا النور . . والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور . .

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض

بالسما . (١)



إنسان عميق لا يرى الأشياء سطوحها ولكنه ينفذ خلالها كالشعاع حتى النهار الذي يتكرر في حياة الإنسان كل يوم ما عاش فلا يشير التفاته بله تفكيره شأن المكرر المعاد . . هذا النهار ينظر إليه العقاد نظرة متوهجة غنية مبتكرة فهو نهار مبتكر ( عليه جددة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ١ . . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلأأ في فضاءه الأول للمرة الأولى . . وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء ، وفي أبعد فترة من الزمان ؟ ههنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفك أن تراه قبل ألف ألف من السنين )<sup>(١)</sup>.

وقد غنى العقاد للنور في كتابيه ( أنا ) و ( في بيتي ) غناء عذبا . والبعثة المحمدية « مطلع النور » ورسالة محمد ( رسالة النور ) ص ١٢٩ .  
النور عنده مصدر كل شيء حتى الربيع : ( إن الربيع ليغنى لأنه حتى ولا سبب للغناء غير ذلك ولا حاجة إلى سبب غيره لمن يحس ويعيش . والربيع حتى لأنه موسم الحرارة والضياء . وهل الحياة إلا حرارة وضياء ؟ إنك لتؤمن بالروح وحده أو بالجسم وحده ثم تقول إن النور هو مصدر كل شيء وأصل كل حياة فلا تكون إلا على صواب ، وما كان نور العين ولا نور الروح إلا شيئا واحداً في العنصر والقرار ، وإلا عنصراً واحداً لكل ما يظهر في هذه الدنيا للبصائر والأبصار )<sup>(٢)</sup> .

وقد يكون هذا القول مجملاً أو مكتتراً على عادة أقواله . ولهذا أرائي

( ١ ) في بيتي ص ١١ .

( ٢ ) ساعات بين الكتب ص ٣٩ .



بحاجة إلى التماس مزيد من إيضاح أو تخريج فيعين كتابه ( الفصول )  
 على الغرض فيسأل معنا : ما هو الربيع ؟ أليس هو فصل الحب ؟ أليس  
 هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الأزهار فتتزوج كما يتزوج الأحياء ؟  
 ألا تتكشف للعشاق علاقة هذه الأزهار بالغرام فيتراسلون بالأنوار الندية ،  
 والرياحين الشدية . ويخرجون إذا أقبل الربيع إلى المنازه والخلوات فيختارون  
 من الأماكن ما تحف به الورد المتعاقبة والطيور المتعاشقة . وتفاجئهم  
 بهجة الحب داخل نفوسهم ومن خارجها فى نفثة واحدة من نفثات الطبيعة  
 الحية ؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا ، وأية قربى تمت بها الأزهار إلينا  
 ألصق من القربى التى تجمع فى موسم واحد بين توالدنا وتوالدها ، وحياتنا  
 وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فيها ؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير ألوان الزهر على أبصارنا ولا ما هو  
 سر تأثير الزهر بذاته فى شعورنا . ولكننا قد نرى علاقة النور بالألوان . ونرى  
 علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة  
 العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهر بباعث واحد فى  
 زمن واحد ولا نرى منها إلا ما هو من الحرارة قابس ، وبالصوء مزدان  
 ولا بس ، وفى الحب مغروس وغارس ) .

وليس هذا من حلى الأسلوب كما يوحى التوافق بين أواخر الجمل فى  
 الصوت والحروف فإن العقاد يمضى قائلاً :

الحرارة تنبعث من الشمس إلى جوف الأرض فتتخللها فتنبث البقل  
 والثمرات - ذلك هو الربيع .



والحرارة تبسط نورها على الأزهار فينسج على أوراقها اللطيفة ألوانه ويحليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الألوان وبهجة الأزهار .

والحرارة تجري الدم في العروق فتثيظ العواطف التي أنامها الظل . وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق إلى تجديد الحياة في مخلوق جديد ، ذلك هو الحب . فالربيع والأزهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هي الحرارة . أو هي الشمس أم الحب والحياة في هذا النظام ) .

كان العقاد يحب النور وما أكثر ما قرأ العقاد في صباه على ضوء شمعة أو فتيل مصباح ١١ . وما أكثر ما في حياة هذا القلم من عجائب ومقابلات .

\* \* \*

أنا لم أقل كل شيء عن ظاهرة واحدة من ظاهرات عديدة في أدب العملاق إن هي إلا لمحة من نوره تسمى على ضوء ذكرى حياة طويلة جهريرة كبيرة العطاء ، وحياة عريضة غنية لها تاريخ في التاريخ . وهي - معلمي من معالم النهضة الأدبية الحديثة يقف صاحبها بين أعلامها قمة شامخة باذخة . حياة ثرة المنابع كثيرة الجوانب كالنهر العظيم تتفرع عنه في سيره الجداول والعيون . أملت له ، في العمر ، الأيام وأمل لها ، وأمدته وأمدتها ، وعاشت في أدبه وعاشها . وعلى جلال السن وهالة المشيب رحل عنها وهي ما زالت ترجمته ، وما زال عنده الكثير مما هو بسبيل كتابته والبحث فيه . كانت الكتابة روح حياته ومعناها فلم يحل بينه وبينها إلا سفره إلى أسوان . وهو



معنى ضخم لا ينفذ إليه إلا الأقلون ليعيشوه . وحتى هؤلاء ، يقف بينهم  
بذكره المريض ، نموذجاً وحده ، عباس محمود العقاد .

\*\*\*

إن العقاد كقمة الحرم الأكبر لا يرق إليها صاعد إلا من قاعدة واسعة .  
فالعقاد لم يكن شاعراً فحسب ، أو كاتباً فحسب ، أو ناقداً فحسب ،  
أو عالماً فحسب ، بل كان هذا كله مجتمعاً ، وكان أكثر منه .  
إن القول في العقاد يطوف ما يطوف ثم يقصر عن الإحاطة أو ما دونها .  
إن هي إلا لمحات جانبية لأن القول الحق فيه والتقييم الدارس لا يتأتى  
إلا بالوقوف على الأصول التي درسها العقاد ، وورود المنابع الثقافية التي  
عب منها العقاد . وهو أمر تشكل ضخامته صعوبة كبيرة للدرس والتقييم  
إلا أن يسعف صبر صابر وتفرغ مخلص وجد دؤوب . ولعل هذا يفسر طواف  
معظم الدراسات والكتب بمشاهير الكتاب والشعراء دون العقاد من تهيب  
لمجالاته وتقدير لوعورة الطريق .

حين ترجم العقاد لابن الرومي قال ( لأن تكون ترجمة ابن الرومي  
صورة خير من أن تكون قصة ، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين  
قصص الواقع أو الخيال ) . ولكننا إزاء العقاد . نجد أنفسنا أمام قصة  
نادرة بين قصص الواقع تكاد تكون أسطورة بما اجتمع لها من ألوان التفرد  
والترفع والامتياز .

\*\*\*



## مؤلفات الأستاذ العقاد

وبعض تراث العقاد في حياتنا الفكرية ما أذكره على سبيل المثال لا الحصر

الشعر :

- ديوان العقاد ( أربعة أجزاء ) ١٩٢٨
- يقظة الصباح ١٩١٦
- وهج الظهيرة ١٩١٧
- أشباح الأصيل ١٩٢١
- أشجان الليل ١٩٢٨
- وحى الأربعين ١٩٣٣
- هدية الكروان ١٩٣٣
- عابر سبيل ١٩٣٧
- أعاصير مغرب ١٩٤٢
- بعد الأعاصير ١٩٥٠
- ديوان من دواوين ١٩٥٨
- ما بعد البعد ١٩٦٦

الأدب والاجتماع والتاريخ :

- الفصول ١٩٢٢
- الشذور ١٩١٥



- مطالعات في الكتب والحياة ١٩٢٤
- مراجعات في الأدب والفنون ١٩٢٥
- اشتات مجتمعات في اللغة والأدب ١٩٦٣
- ساعات بين الكتب ج ١ ١٩٢٧ ج ٢ ١٩٤٥ الجزءان معاً سنة ١٩٣٧
- عالم السندود والقيود ١٩٣٧
- يسألونك ١٩٤٧
- بين الكتب والناس ١٩٥٢
- إبليس ١٩٥٥
- على الأثير ١٩٥٣
- مطالعات ١٩٥٦
- عقائد المفكرين في القرن العشرين ١٩٥٨
- جمحا الضاحك المضحك ١٩٥٦
- في بيتي ١٩٤٥
- القرن العشرون ما كان وما سيكون ١٩٥٩
- ١١ يوليو وضرب الإسكندرية ١٩٥٢
- اليد القوية في مصر ١٩٢٨
- جوائز الأدب العالمية ، مثل جائزة نوبل ١٩٦٤

القصة :

- سارة ١٩٣٨



### الدراسة والنقد واللغة :

- الديوان في النقد والأدب مع الأستاذ المازني ١٩٢١
- ابن الرومي حياته وشعره ١٩٣١
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ١٩٣٧
- رجعة إلى أبي العلاء ١٩٣٩
- قمم في الميزان ١٩٣١
- أبو نواس الحسن بن هاني ١٩٥٣
- شاعر القزل ( عمر بن أبي ربيعة ) ١٩٤٣
- جميل بثينة ١٩٤٤
- شاعر أندلس وجائزة عالمية ١٩٦٠
- اللغة الشاعرة ١٩٦٠
- التعريف بشكشير ١٩٥٨

### الترجمة :

- ( عرائس وشياطين ) مجموعة من الشعر العالمي ١٩٤٥
- ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي ( ١٩٥٤ )

### الملكات :

- خلاصة اليومية ١٩١٢



- اليوميات ج ١ ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ١٩٦٥ ، ج ٣ ١٩٧١ ، ج ٤ ١٩٧١ ، ج ٤ ١٩٧٤

#### الفلسفة :

- مجمع الأحياء ط ١ ١٩١٦
- الله ١٩٤٧

#### السياسة :

- الحكم المطلق في القرن العشرين ١٩٢٨
- متلر في الميزان ١٩٤٠
- أفيون الشعوب ١٩٥٦
- فلاسفة الحكم في القرن الحديث ١٩٥٠
- الشيوعية والإنسانية ١٩٥٥
- الشيوعية والإسلام ١٩٥٦
- النازية والأديان ١٩٤٠
- الصهيونية العالمية ١٩٥٥
- لا شيوعية ولا استثمار ١٩٥٧

#### العقريات والشخصيات الإسلامية :

- عبقرية محمد ط ١ ١٩٤٢



- عبقرية الصديق ١٩٤٣
- عبقرية عمر ١٩٤٢
- عبقرية الإمام ١٩٤٩
- عبقرية خالد ١٩٤٥
- عبقرية المسيح ١٩٥٣
- أبو الأنبياء . . المخليل إبراهيم ١٩٥٣
- داعي السماء ( بلال ) ١٩٤٥
- ذو النورين ( عثمان بن عفان ) ١٩٥٤
- الصديقة بنت الصديق ١٩٤٣
- أبو الشهداء ١٩٤٥
- عمرو بن العاص ١٩٤٤
- معاوية بن أبي سفيان في الميزان ١٩٥٦
- فاطمة الزهراء والفاطميون ١٩٥٣

#### الإسلاميات :

- الإسلام والاستعمار ١٩٥٧
- مطلع النور ١٩٥٥
- الديمقراطية في الإسلام ١٩٥٢
- أثر العرب في الحضارة الأوربية ١٩٤٦
- الفلسفة القرآنية ١٩٥٧



- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٩٥٧
- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان العبرين ١٩٦٠
- التفكير فريضة إسلامية ١٩٥٧
- الإنسان في القرآن الكريم ١٩٦١
- الإسلام في القرن العشرين ١٩٥٤
- ما يقال عن الإسلام ١٩٦٣

#### التراجم :

- حياة قلم ١٩٦٣
- سعد زغلول ١٩٣٦
- روح عظيم (غاندى) ١٩٤٨
- تذكار جيتى ١٩٣٢
- بنيامين فرانكلين ١٩٥٦
- محمد على جناح ١٩٥٢
- برنارد شو ١٩٥٠
- الشيخ الرئيس ابن سينا ١٩٤٦
- عبد الرحمن الكواكبي ١٩٥٩
- سن يانسن ١٩٥٢
- فرانسيس باكون ١٩٤٥
- ابن رشد ١٩٥٣



- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٩٦١
- رجال عرقهم ١٩٦٣

### المرأة :

- الإنسان الثاني ١٩١٢ .
  - هذه الشجرة ١٩٤٥
  - المرأة في القرآن الكريم ١٩٥٩ .
- أما الكتب التي قدم لها ، أو عرف بها أو نقدها . . . أما المقالات والبحوث في شتى المعارف فقد سجلتها دار الكتب في نشرة بيبليوجرافية باسم عباس محمود العقاد .



## كتب للأستاذ العقاد صدرت بعد وفاته

- أنا ( ١٩٦٥ )
- ردود وحلود ( ١٩٦٩ )
- دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية ( ١٩٦٩ )
- الحرب العالمية الثانية ( ١٩٧٠ )
- المرأة ذلك اللغز ( ١٩٧٠ )
- بحوث في اللغة والأدب ( ١٩٧٠ )
- خواطر في الفن والقصة ( ١٩٧١ )
- قيم ومعايير ( ١٩٧٢ )
- عيد القلم ( ١٩٧٣ )
- مع عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز آل سعود ( ١٩٧٣ )
- الإسلام والحضارة الإنسانية ( ١٩٧٣ )
- آراء في الآداب والفنون ( ١٩٧٣ )
- دين وفن وفلسفة ( ١٩٧٣ )
- الإسلام دعوة عالمية ( ١٩٧٣ )
- مواقف وقضايا ( ١٩٧٤ )
- فنون وشجون ( ١٩٧٤ )



## فهرس كتاب العقاد

الصفحة

### الباب الأول

٥	الجمال والحرية
٩	العقاد

### الباب الثاني

٣٧	الشخصية الإنسانية
٣٩	الفصل الأول : عبقریات العقاد
٧٣	الفصل الثاني : عبقرية المسيح
٨١	الفصل الثالث : عبقریات العقاد الإسلامية
١٠٩	الفصل الرابع : العقاد والمرأة
١٣٥	الفصل الخامس : الإنسان في شعر العقاد
١٤٩	الفصل السادس : العقاد يترجم للعقاد
١٨٥	ترجمة حياة
٢٢٠	مؤلفات العقاد
٢٢٧	كتب للعقاد صدرت بعد وفاته

رقم الإيداع	١٩٨٣/٢٧٦١
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٤٢٦-٩

١/٨٣/١٠٨

طبع وطلب دار المعارف (ج.٢٠٠٠ع.)







## هذا الكتاب

يناقش هذا الكتاب ثلاثة خطوط رئيسية في أدب العقاد :

- خط الحرية وفهمه لها بألوانها ، ومواقفه منها .
- خط الجمال والفن «الموسيقى والفنون التشكيلية» .
- خط «الإنسان» .

وهذا الخط يشغل جزءاً كبيراً من الكتاب حيث ناقش عبقریات العقاد الإسلامية . . كما ناقش عبقرية المسيح .

وتناول هذا القسم من الكتاب التراجم الإنسانية التي كتبها العقاد من أدثال غاندى والشيخ محمد عبده . وشكسبير وبرناردشو وجيته وابن سينا وابن رشد وفرانسیس بیكون وسعد زغلول . ومن شعراء الطبيعة كابن الرومی ، وشعراء الغزل كجميل بثينة وعمر بن أبی ربیعة .

ومن هذا المنطلق ترجمت الكاتبة حياة العقاد نفسه : «العقاد الإنسان . . العقاد الشاعر . . العقاد والمرأة» . . في موضوعية علمية تجمع مع دقة التحليل وبراعة العرض والكثير من الجديد الذي يكتب لأول مرة ، الأسلوب الأدبي الشيق والجميل .



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)